فضاء الجرح

قراءات في أدب الانتفاضة

ابراهيم سعفان

اصدارات دائرة الثقافة والاعلام - حكومة الشارقة 2001

فضاء الجرح

فضاء الجرح

قراءات في أدب الانتفاضة

ابراهيم سعفان

اصدارات دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة
٢٠٠١م

اصدارات دائرة الثقافة والإعلام
الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
ص. ب ٥١١٩

الطبعة الأولى
٢٠٠١ م

٨١٠,٨٠٩٥٦٩	ابراهيم سعفان
ا س . ف	فضاء الجرح، (قراءات في أدب الانتفاضة)/ابراهيم سعفان. ـ الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠١.
	٩٦ ص؛ ٢٤سم
	١ ـ الأدب العربي ـ مجموعات ٢ ـ الشعر الحماسي (فلسطين)
	٣ ـ قصص الحرب ٤ ـ القصة الفلسطينية ٥ ـ الانتفاضة
	أ ـ العنوان

تمت الفهرسة بمعرفة مكتبة الشارقة أثناء النشر

الجزء الأول

الشعر في الانتفاضة

(١) مقدمـــة:

مازال الشعر أكثر الفنون استجابة فورية للأحداث، وأكثر تأثيراً في المتلقي، ومازال السجل الهام الذي يسجل الأحداث ويحفظها لنا في ذاكرته كمرجعية للدراسة والبحث، ولولا هذا لضاع مثلاً تاريخ الأدب الجاهلي.

لهذا كان للشاعر ومازال مكانة هامة في تاريخنا الأدبي يحتفى به، ويكرم لأنه يدافع عن القبيلة بشعره مثل المقاتلين بسهامهم. من هنا أرى أن مواكبة الإبداع الأدبي عامة والشعر خاصة للفعل النضالي أمر ضروري بصرف النظر عما قد يصيبه من آفات المباشرة والتقريرية لأنه وثيقة شاهدة على العصر، لهذا ألسنا مع بعض النقاد القائلين أن صمت شعراء المناسبات أفضل من إبداعهم لأنه سيكون ضعيفاً فنياً ؟

ويشاركني الرأي صبار نور الدين الذي يقول: «الشعر هو أكثر الفنون انفجاراً وتأثيراً بجرسه وعاطفته وحماسته وقدرته على الدفع والإثارة بطاقة

مخزونة بقوة الشحنات العاطفية والقيم المتوهجة المنطلقة.

«وكل الفنون شاركت في رسم معالم أدب الثورة. إلا أن الشعر يبقى هو الجسر السهل والقريب الخطير والفاعل في الوقت نفسه يرسل أشعته المتفجرة في أعماق الإنسان والشعب كالدم يفور غيظاً ويتنامى حتى يصير إعصاراً ثائراً يستأصل كل خبيث ودخيل. من هنا اعتبر فن المقاومة بشكل عام مدافعاً ومكافحاً ضد كل أنواع الظلمات بغية التغيير والتجديد وبقصد التنوير والتحرير»[1].

إذن، الإبداع الفني بأنواعه المختلفة له أثر فاعل في إيقاظ الشعور الوطني، والحث على الجهاد، وحشد الجماهير حول المناضلين يشدون من عزيمتهم، لهذا نحن في حاجة شديدة إلى جميع الأصوات الأدبية والفنية لتشدو بالفعل النضالي، كل صوت حسب قدرته الفنية، وعلينا أن نترك الحكم عليها للنقاد الذين يفرزون الجيد من الرديء.

ولبيان أهمية مواكبة الإبداع للفعل النضالي نضرب المثل بحرب ١٩٦٧، ١٩٧٣، وحرب الخليج، والانتفاضة الأولى ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية سبتمبر/أكتوبر ٢٠٠٠، فقد سجلها لنا الإبداع الأدبي وحفظها في ذاكرته لتمثل مرجعية تاريخيةِ واجتماعية ونفسية. لقد زلزلت الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧ المبدعين زلزلة شديدة فجرت فيهم ينابيع الإبداع هادرة تعلن للعالم أن الإنسان الفلسطيني بل الإنسان العربي في كل مكان لن يموت أبداً، وأنه يقدم التضحيات حتى يتحرر الوطن الفلسطيني الغالي من اليهود الملعونين، ويسلموا الراية عالية منتصرة.

عندما ننظر في الإبداع الشعري في الانتفاضة الأولى نجده كثيراً كماً على مستوى البلاد العربية، ومتنوعاً مضموناً إلا أن المبدعين اتفقوا على ضرورة الاستشهاد من أجل استرجاع فلسطين، وأن قتال اليهود فرض عين

على كل إنسان لتحرير الأراضي العربية، واتفقوا أيضاً على الطريق الوحيد هو لم الشمل، وأن الوحدة العربية تفرض نفسها الآن لمواجهة العدو اليهودي والاستعماري الأمريكي ونجد الأهداف نفسها في الإبداع الذي واكب الانتفاضة الثانية وإن لم يصل إلى الكثرة الكمية في الانتفاضة الأولى.

(٢) بداية كل حريق شرارة:

إن الإبداع الشعري الغزير الذي واكب الانتفاضة لدليل على تجاوب الشعراء الكبير في جميع البلاد العربية، مما جعل عملية تناول هذا الكم بالدراسة أمراً صعباً، لذا أخذت بعض النماذج الشعرية لإعطاء صورة واضحة عن الانتفاضة. في قصيدة «لاتشجبوا .. بل عانقوا أطفال الحجارة» للشيخ أبو زيد إبراهيم (كان يعمل بالإمارات واعظاً في دائرة الأوقاف بدبي وظل بها حتى توفاه الله) نجده يحذر من الاستسلام للسياسة، والاستماع لصوت الغضب الهادر الذي يعلو كل الأصوات، يقول:

لا تشجبوا حمم المجازر يا عرب ... بل عانقوا طفل الحجارة في اللهب
صوت السياسة فرقعات ملاعب ... في حومة الميدان يحرقها الغضب
صوت الردى المسحور أقوى صيحة ... ووسامة النصر المخلّد والغلب
لولاه معتصماً ما كانت لنا ... صبحا وملحمة البطولة للعرب
لولاه «هولاكو» تسمّر ليله ... وامتدت القضبان آلاف الحقب
لولاه ما أودى صلاح بالدجى ... وأطل صبح النصر من داجي الكرب

فالشاعر يستدعى الرموز الإسلامية المناضلة لنقتدي بها في التضحية

والفداء، وليعرف الشباب ما في تاريخهم الإسلامي من بطولات لم تستسلم لليأس، ولم تخشى عدداً مهما كانت أسلحته.

ثم يبين الشاعر بعد ذلك نذالة اليهود، وغدرهم، وخيانتهم للعهود، قتلة الأنبياء، حتى لا نستسلم لوعودهم، ونثق فيهم:

السافكون دم النبوة عنوة ... الحاقدون على الإله وما وهب
والقائلون لربهم مغلولة ... يده وأيديهم يفيض بها الذهب
والخائنون الله جل جلاله ... من قال أهل للعهود فكم كذب
الراقصون على الدماء بنشوة ... سفك الدماء لديهم نعم الطرب
الغاصبون الدور من أصحابها ... والقائلون الغصب حق مكتسب

ويختم الشاعر قصيدته بأن فلسطين باقية منارة للخلود، بتضحيات المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها لتحرير المسجد الأقصى من العدو اليهودي:

هذي فلسطين الحبيبة شعبها ... باق منارا للخلود وللحسب
والمسلمون على اختلاف ديارهم ... للقدس هم من الفداء صدى الحقب
طفل الحجارة من جحيم سلاحهم ... أقوى، كم صنع الصباح من النوب

وفي قصيدة ثانية للشاعر أبو زيد إبراهيم بعنوان «أقوى من النابلم يا حجر»(٢) يبين أن صوت الحق دائماً يعلو، وأن هذه الحجارة أقوى من النار والنابلم، لأن المناضلين يتسلحون بالإيمان:

أقوى من النار والنابلم يا حجر فجند صهيون خوفاً منك تنفطر
مـا في يديه «سلاح» راح يشهره بل في يديه هو الإيمان والحجر

وكما وظف الشاعر في قصيدته السابقة الرموز الإسلامية، نجده في هذه القصيدة يستوحي من القرآن الكريم قصة الطيور الأبابيل وهزيمتها جيش ابرهة، وقصة قوم لوط وتدميرهم:

نال الحجارة من سجيل أبرهة فالفيل والجيش باق منهم الخبر
وأمطر القوم من لوط فعاليهمُ قد صار سفلاً وظلت منهمُ العبر

ويؤكد الشاعر على أن النصر دائماً للشعوب المناضلة، لأن إرادتها من إرادة الله مستمدة من السماء، وهي إرادة لاترد ويستجيب لها القدر:

إرادة الشعب باسم الله نصرتها والحق بالحق موصول ومنتصر
يا من رأى الطفل كرّارا وجبهته تصافح الشمس والطغيان ينحسر
والصوت من خلف سور الدهر يسمعه إني أخوك بقلب الأرض مدّثر
صاغوا عيوني حبات بمعصمهم وما انطفا في فؤادي الثأر والبصر
يا من رأى الشيخ قد عاد الشباب له والثأر في عزمه الغلاب يستعر
يقول أرى هنا داري تخاطبني وكرمتي لم يزل في عرقها الثمر

إن فلسطين الطاهرة تحتضن أبناءها الشهداء بحب، وتلفظ اليهودي حتى لا يدنسها:

والأرض تحضن أهليها تقبّلهم	وفي ثراها دم الثوار منصهر
حديثها يعربيّ اللفظ منطقه	كذلك النخل والزيتون والشجر
لن تعرف الأرض يوما غير صاحبها	وغاصب الأرض تأبى ضمه الحفر

أما الشاعر الدكتور وليد قصاب فيصور في قصيدته «شهداء الفجر الجديد»(٣) حزن الأمهات ولكن ليس الحزن اليائس، بل حزن المتحديات والمستعدات لتقديم المزيد من أبنائهن شهداء فداء لفلسطين لأنهن أعدوهن منذ طفولتهم للشهادة، فأرضعوهم حب الأرض والشهادة وكره العدو اليهودي مغتصب الأرض وحلم الأطفال:

شمس الأصيل

سحبت وراء التل،

أذيال الرحيل

حمراء، عاصبة الجبين

كجبين أمي، هدها النوح الطويل

حزنا على أخي القتيل

ذبحوه - وهي تراه -

كالكلب الحقير

أمي ونسوة حينا

جرعتنا في مهدنا

الأحقاد كأسا من صديد

أمي، ونسوة حينا

ربّيننا في مهدنا

شهداء الفجر الجديد

ويبشر الشاعر أمهات الشهداء وأخواتهم بالنصر القريب على يد الرجال الأشداء الذين رضعوا لبن المقاومة من أمهاتهم، ويصف ذلك في لوحة فنية تنبض بالحركة والحياة:

أختاه قد حان المسير

شمس الأصيل على التلال

سحبت ملاءات الزوال

اليوم يجتمع الرجال

حلماً ألذّ من الخيال

أدوا صلاة النصر

في صمت عميق

عـــرف

الطريق

ثم انثنوا خلف التلال

يضمهم درب سحيق

أما الشاعرة فدوى طوقان فترى أطفال الحجارة يحملون قلوبهم على أكفهم حجارة يرجمون بها العدو اليهودي، ويرسمون طريق المستقبل للنصر، فتقول في قصيدتها «شهداء الانتفاضة»(٤).

رسموا الطريق إلى الحياة

رصفوه بالمرجان بالمهج الفتية، بالعقيق

رفعوا القلوب على الأكف حجارة، قارورة تلد الحريق

رجموا بها وحش الطريق

هذا أوان الشد فاشتدي

ودوّي

في مسمع الكون الصدى

هذا أوان الشد

واشتدت

وماتوا الطريق

وتواصل فدوى طوقان رسم اللوحة الشعرية الحية التي يتحرك فيها أطفال الحجارة كأنهم شعل نار تحرق العدو المغتصب :

انتفضوا، وثبوا، نفروا

انتشروا في الساحة شعلة نار

اشتعلوا سطعوا وأضاءوا

في منتصف الدرب وماتوا

وتستكمل الشاعرة اللوحة الفنية ببيان ارتباط أطفال الحجارة بأمهم الأرض التي أرضعتهم والإرادة، فلن يبعدهم عنها العدو المغتصب، وسيظلون

في حضنها طول العمر:

سيظل رضيعاً طول العمر

لن تنزعه عن ثدي الأرض حشود الشر

أو غيلان البحر، البر

لن يفطم مهما استشرى الغاصب لن يفطم

حتى تصبغ كف الموت بليلة غدر

حلمةُ ذاك الثدي الثر بمرّ العلقم

وتستبشر الشاعرة مثل بقية الشعراء بالنصر على أيدي هؤلاء الأطفال الصاعدين إلى الأعالي يقطفون الفجر الجديد، وتؤكد الشاعرة ذلك بتكرار كلمة «الصعود»:

أنظر إليهم في البعيد

يتصاعدون إلى الأعالي، في عيون الكون هم

يتصاعدون

وعلى حبال من رعاف دمائهم

هم يصعدون ويصعدون ويصعدون

لن يمسك الموت الخؤون قلوبهم

فالبعث والفجر الجديد

رؤيا ترفقهم على درب الفداء

انظر إليهم في انتفاضتهم

صقورا يريطون

الأرض والوطن المقدس بالسماء

أما الشاعر الإماراتي سلطان خليفة الحبتور فيرى أن الانتفاضة نسفت المفاهيم الثابتة المعروفة عن العرب والتي روج لها العدو اليهودي، والاستعمار الغربي بأن العرب ضعفاء، لا حول لهم ولا قوة، لا قبل لهم بالحرب، فجاءت الانتفاضة مفاجأة هزت العالم فعرف أن الصوت العربي لن يضيع، وأن إرادته لن تضعف، وأنه مازال يجري في عروقه نبض التضحية والشهادة، جاءت الانتفاضة كلمة حق تؤيده من الله سبحانه وتعالى، وسيكون النصر حليفها إن شاء الله، فيقول الشاعر في قصيدته «لن نرضى الحلول المستعارة»[1].

نسفوا المفهوم دائما والمألوف

واستلوا الحجارة

ركبوا الطوفان

أشعلوا النار لهيبا

يملأ الأرض أواره

بصقوا في وجه صهيون

وقالوا:

نحن أحرار، وأحياء،

ورفض حارق في كل حارة

تحدي أطفال الحجارة الموت ولم يخشوا العدو اليهودي الغاشم، ليعلنوا للعالم أنهم لن يتركوا أرضهم وسيحررونها بدمائهم:

لم يخافوا.. زحفوا

قاوموا الأعداء بالعزم،

وبالإيمان.. واستشهدوا

كسروا الخوف وهبوا

للفدا في كل غارة

أذهلوا الدنيا وكانوا

كالبراكين هديرا

واندفاعا وحرارة»(٦).

والشاعر الإماراتي ظاعن شاهين يعبر عن حزنه، وخوفه من ضياع الفرحة التي قد يغطي عليها الضباب، ولكنه يحث أطفال الانتفاضة على التحليق في فضاء الجرح، فيبين في قصيدته «هل تدخل القصيدة نارها»(٧) أن الكلمة الشعرية المعبرة عن صوت الشعراء تنير الطريق أيام المناضلين:

لك صرخة الشعراء

يا هذا ابتهج بالحرف أو

بالصبح

ازرع من جدائل نهرنا

الفضي أشرعة

وحلق في فضاء الجرح

فالأعياد لا يأبى إلى الأرض

تطاردها الصراعات التي لا

تنتهي

والأمن يأبى أن يكون بطاقة

تأتي بطيبات البريد(٢)

ويصور الشاعر أطفال الانتفاضة بأنهم الحجر الذي يجري في عروقنا، إنه الحجر المقدس الذي حملته الطيور الأبابيل وهزمت جيش أبرهة. ونرى استيحاء الشاعر التاريخ الإسلامي بحديثه عن مبايعة الرسول عليه السلام في سقيفة ابن ساعدة:

عمدت وجهي في البلاد

فكحلت أحزانها شق الجفون

ورجالها كانوا هناك

يبايعونني

في سقيفة ساعدة

كان الثرى ما بين أرجلهم

نشور

وائتلاف

هل تدخل الآن القصيدة

نارها

أم أنها ترتد من قصر الأمير

لترتمي تحت الأقدام(٩)

والشاعر عبد الستار سليم في قصيدته «إلى وجه فلسطين»[١٠] يدعو أطفال الحجارة إلى الصمود في وجه الريح العاصف، ولا تستسلم لليأس:

يا أيها الوجه المسافر في

قطارات الزمن

ياأيها الوجه المضرج بالوطن

لا تقنطن

حتى ولو لفوك بالريح الغضوب

وجردوك من الكفن

أنت أيها الطفل الفلسطيني أملنا في التحرير، وفي طلوع الفجر الجديد، فاصمد في الميدان حتى ولو سلبوك سطورك المبشرة بالصبح، والحبلى بالأحلام:

يا أيها الوجه الموشى بالعلن

لا تقنطن

حتى ولو سلبوك كل سطورك

الملأى بلون الصبح.. والحبلى

بأحلام الوسن[١١]

إن تحقيق الأماني ليس سهلا، ليس مفروشا بالورود، ولذا أيها الأطفال المناضلون عليكم بالصبر، ومواصلة الجهاد لتحقيق النصر الكبير. وقد شبه الشاعر النصر بعملية الولادة التي يسبقها معاناة وجهد وكبد ثم تنتهي

بالنتيجة الإيجابية:

حتى ولو أضناك جهد الحمل

آلام الولادة

طلق ساعات المخاض المبهمة

يا أيها الوجه المعذب بالفصول

المؤلمة

في صرخة المولود يبتسم الفرح

ويكون بدءا للعواصف

والقواصف

والسيوف الموهقات

وللحروف الملهمة(١٢)

وتأتي قصيدة الشاعر المغربي محمد الطوبي «إلى أطفال الانتفاضة»(١٣) لوحة فنية مبشرة بالنصر وقطف أقمار الجرح:

طفل يأتي مفتونا باللوز المزهر

من معجزة الحب ويكشف لوعة بيسان

طفل يقطف أقمار الجرح ويرسم شارة النصر

طفل يولد من دالية الأحزان(١٤)

وتتوهج القصيدة بتمرد الجرح الفلسطيني، ويعلن الثورة لتحرير أرضه:

طفل يمتلك قناديل الروح وجموح الغزلان

طفل يمتشق قداس الشهداء، يرفل غبطته الخضراء

ويعلن في الدنيا بالحجر نهار العصيان

طفل ملك.. ملك طفل يمسك شهوات الحجر،

يخوض تراث الأرض وينشق ذاكرة النسيان

طفل سفك الشفق الشاسع(١٥)

ويبين الشاعر أهمية ما قام به أطفال الحجارة، وأثره في تحريك الشعور الوطني العربي، وإنهم بذلك ضربوا أروع المثل في مواجهة الموت، متحدين العدو ومن ورائه أمريكا:

طفل يولد يستشهد يولد من أرق الحرمان

طفل زف فلسطين على توقيت فلسطين

أمام جنود وبنادق تحرس ليل القهر

طفل يرشق بالمقلاع الطاغوت النازي

الملفوف الواقف تحت مظلة أمريكا،

طفل يخرج من وجع القدس رشيقا يمشي في درب الثورة

ليؤسس مملكة الريحان(١٦)

وفي قصيدة بداية كل حريق شرارة»(١٧) للشاعر التونسي نور الدين صمود، يرمز الشاعر لأطفال الحجارة بالطير الأبابيل، هذا الرمز الذي استوحاه الكثير من الشعراء في قصائدهم عن الانتفاضة، فأطفال الحجارة مثل العصافير تحلق في الفضاء حاملة حجارة من سجيل لترجم العدو، فتنزل

عليه أشد من رصاصه ودباباته:

طيور أبابيل تلقي رجوم الحجارة

على كل فيل دخيل مهاجم

فتنزل مثل الصواعق

تحول كل رؤوس البغاة جماجم

وتضحك من قهقهات البنادق

وتشعل في أنفس الغاصبين الحرائق

وتملأ قلب الدخيل مرارة

وتنزل في كل قلب شريف نزول البشارة(١٨)

ثم يبين الشاعر أن أكبر الحرائق تحدث من أصغر الشرر، وهذه الشرارة الصغيرة وهي انتفاضة أطفال الحجارة تضيء الطريق وتطهره من دنس الأعداء، لقد علمونا أن معنى الحياة بالتضحية والمواجهة:

ومن كان في كفه الصخر نارا

فسوف يسجل فوق ثراه انتصاره

ويطرد كل دخيل ويملك داره

ويدرك ثاره

ابن الحجارة هي البدايه:

فابن حجارة أطفالنا

لعهد جديد من البذل للروح كانت بداية

وللغاضبين تكون النهاية

تذكرنا بعصور الحجاره

ولكن أطفالنا علموا الناس معنى الحجارة

فهب الجميع هبوب امرىء عربي

ينجد جاره

وترسم للنصر في الجو بشاره[١٩]

والشاعر محمد مهران السيد[٢٠] صور في قصيدته «لا عليك»[٢١] ثورة أطفال الحجارة في لوحة شعرية ملأى بالصور الفنية التي تحمل الحب والخوف على هذا السائر وحده في الصحراء دون هادٍ يرشده:

مستوحشا في قاع صحراء الغواية

أمضي بلا راية

لا ظل يتبعني ولا درويش يمنحني الهداية

❖ ❖

كيف السبيل إلى جذور الورد في الرمل/ المرايا

كيف الوصول إلى شميم المسك في شعر الصبايا

يا أيها المسجون في نفسي، وقديس الخطايا



فبأي آلاء القصائد أحتويك

وبأي ورد أجتبيك

ألبستني موتي، وقيدت الرؤى

فمضيت أوغل في الهوى، حتى كأني ما انتهيت

لا.. لا.. عليك

سيان إن شاركتني.. غيث الحنان

أو ضاق بي صدر الجنان

فجميع ما تحت المسام

يفيض متحها إليك

وشراع حلوتي المرقّع بالشجى

سيظل يبحر.. في زبرجد مقلتيك

لا عليك.. لا عليك[٢٢].

أما الشاعر محمد راجح الأبرش في قصيدته «جيل الشهداء»[٢٣] يحرض أطفال الحجارة على الاستمرار في المقاومة، ولا تنظروا إلى عددكم القليل، لأنكم رغم قلة العدد والعتاد ستنتصرون بإذن الله، لأن عدتكم الشجاعة، والقلوب الجسورة، أنتم شعلة متوهجة تحرق العدو اليهودي المغتصب. كما يدعو في قصيدته إلى الاهتمام بالنشء لأنهم عدة المستقبل في بناء الأوطان:

إرم بالحجارة لا تركن لهم	لا تقول إني فقدت العددا
عدّة الحر فؤاد باسل	يقحم الهول ويعلو صعدا
فإذا ملكته نار اللظى	يصبح العادي حطاما بددا
جيلنا الناشىء لو يعنى به	يصنع التاريخ مجدا وهدى
نشؤنا الصاعد لو نحسن له	لا ترى منه نؤوما ابدا[٢٤]

ويعبر الشاعر عن حبه للأرض زهورا وورودا، يحبها حجارة يقذفها الأطفال في وجه العدو:

أعــــشق الأرض رياحـــينا وريا   أعـشق الأرض صـخـورا جلمـدا

أعـشق الأرض حــجـارا قـذفت   من يد طفل على وجـه العـدا

أعـشق الأرض انتـفـاضـا ولدت   كل حـــر عــربي صــمــدا[٢٥]

ويبشر الشاعر بالنصر، واسترداد الحق السليب بفضل الله ونضال هؤلاء الأطفال:

هذه أرضي ســـيـــوف جــردت   وانتــفـاضـات على طول المدى

نحن قـــــوم عـــــرفنا دربنا   وانطلقنا نصنع اليـوم الغــدا

فــابشـــري يا أمــتي في مــولد   وإن هذا الجيل جيل الشهدا[٢٦]

أما الشاعر الأردني عبدالله الشحام في قصيدته «ما قاله الشهداء قبل الرحيل»[٢٧]، ومن خلال ذلك يبين رؤية كل شهيد لمستقبل الوطن الفلسطيني، وإنهم سعداء باستشهادهم؛

ماقاله الشهيد الأول:

أشيد الأغاني

أعانق بعضاً من الذكريات

أطل على ربوة في البعيد البعيد

أرى نبضات الحياة عصافير مأخوذة بالحياة

ويواصل الشهيد الأول التعبير عما تحس به نفسه من فرح وسعادة، وأنه يردد أغاني الفرحة، وأنه لا ينظر إلى هؤلاء الأعداء الذين يريدون موتي، ولكن أسير في طريقي أزرع الأمل:

أحس بنفسي جذلى تبوح بأسرارها

لا يراني الذين يريدون موتي لكنهم يتبعونني حتى أنام

أشيح بوجهي عنهم

وأزرع تفاحة في الفؤاد المسبّح بالطلقاتِ

وامشي إلى أملٍ

يسقطون

وأمشي إلى ساحل الذكريات

على راحتيّ صخور الجبال وأصوات عاصفة في الهبوب

وفي شفتي الأغاني وهمس الصباح[٢٨].

أما الشهيد الثاني، فيستعيد ذكرياته مع حبيبته، وكيف كان يوزع ورود الأمل على الأصحاب، ويجعل من راحته عنباً ونخيلاً لمستقبل جميل يبشر بالخير:

وكان يلوح على شارع القلب مشتعلا بالرضى والجمال

وكنت أغار من الشجن الذي لا يبوح

وكان يغار عليّ من الريح حتى تبوح الرياح له

بالذي يجمع العاشقين على زفرات الحياة

وكان هنا خيمة وصلاة

وكنت أوزع كل وروده حقولاً حقولا

وأجعل من راحتيّ عنبا ونخيلا

وأجعل من حبيبتي قمرا

وفضاء جميلا[٢٩].

أما الشهيد الثالث فيقول إنه يمد الأغاني لحناً جديدا، وأنه يطل على الفجر الآتي المشرق بالنصر، ويكتسح أمامه الظلام:

أمد الأغاني لحنا

أطل عليها

تغيب شموس ونشرق أخرى

وأقرأ سفْر انتمائي

أطل على آية الفجر تمحو الظل العنيد[٣٠].

ونرى الشاعر الحيفاوي عدنان ضميري في قصيدته «العصفور يبحث عن مكان السارية»[٣١] يصور مشهد استشهاد الطفل مأمون عندما كان يرفع العلم على عمود الكهرباء (ستشهد في الشرقية - مدخل عزبة الحراد - طول كرم ١٩٨٩/٤/٣٠) ليظل علم وطنه مرفرفاً عالياً. والقصيدة يصوغها الشاعر في أسلوب قصصي شعري:

طار مأمون الصغير كقبرة

سلب الرعاة صغارها

فتعلقت تبني على عمود الكهرباء

بعد أن ضاقت عليها المقبرة

رفّت على أصابعه الصغيرة ألوان العلم

رفت كجنح القبرة

وتخضبت بدم الجرح الطويل[٣٢].

ويواصل الشاعر سرد قصة مأمون مستوحيا قصة هدهد سليمان:

وتثاقل الحسّون ينقل أطراف الخبر

ذهلت «صمود» وقالت أنى ما الخبر

يا أيها العصفور كيف التوحد بين كنه بلّها

في الهواء الطلق وألوان العلم[٣٣].

ويعبر الشاعر عما يحسه الشهيد مأمون، فقد عرف أن الحياة الحقيقية أن يموت الإنسان شهيدا في ظل علم وطنه:

لهفي عليك أخي جبُن الطغاه

حين قلت: أموت في ظل العلم

وأعيش في ظل العلم

هي طلقة حمقاء لم تفنِ العلم

إني على ثقة بأغنية الطفولة والخلود

رسمت على شفة الصبية النارية

لغة التحدي والتمرد رغم أنات الرحيل

تلك الرصاصة حبلى في جباه الصامدين

بسارية العلم.. وعرس العلم[٣٤].

الشهيد حيّ عند ربه يرزق، حيّ في قلوب الشعب، فصوتك يا مأمون

يسري في وجه التيار أقوى من صراخ الألم:

يخضرّ قرص الشمس

في إغماضة العينين في حلمك

ويبدل الدوري ريشه

وتصير تشبهك السماء[٣٥].

أما الشاعر الجزائري الزهراوي نوفل في قصيدته «الانتفاضة»[٣٦] فيرى أطفال الحجارة عصافير تطير إلى المسجد الأقصى، وإنهم سيحققون النصر، وفي الوقت نفسه يحذرهم من الغدر والخيانة، يحذرهم من السماسرة الذين يتاجرون بدمائهم الطاهرة:

يا صغيري

أسعد الله مساءك

وحماك الله من أظفار أيدينا الأمينة

واشتهاءات نوايانا الدفينة

أيهذا اللابس الصخر على الجلد

فما أبهى رداءك

❖ ❖ ❖

أسعد الله مساءك

أيها الساكن في أشباحنا تبغي فضاءك

أيها الدارج في ارواحنا

مثل الحكاية

أيها الطالع فينا كالغواية

تتهجّى لغة غير التي نعرف إنا

يا صغيري

نتهجّى كلمة واحدة منذ البداية[٣٧].

❖ ❖ ❖

والشاعر محمد إبراهيم أبو سنة يبين في قصيدته «وحدنا والمغول»[٣٨].

أن أطفال الانتفاضة يواجهون العدو اليهودي وحدهم، بصدورهم، سلاحهم الحجارة دفاعا عن هذه الأرض التي سوف تبقى لأحلامنا، وأطفالنا، وسيخرج العدو واليهود الذي يقاسمنا وطننا، وهواءنا، ولكن في النهاية ستكون الأرض لنا وحدنا:

وحدنا والمغول

نتفجر في ذروة المستحيل

نتقابل جسما لقنبلة

فوق هذي البلاد التي

سوف تبقى لأطفالنا

سوف تبقى لأحلامنا

وطننا لايزول

....

وحدنا والمغول

نتقاسم هذا الهواء الذي

كان ملكا لنا من زمان طويل

يكسرون عظام الواعد

هذي السواعد تنمو

غصونا من نار

ندق رماد الفصول

أرضنا لحمنا

لحمنا يتغلغل تحت جذور النخيل

يرتوي من مياه الأعاصير

عبر القرون التي غرستنا

يرتوي من دماء الحقول(٣٩).

ويبشر محمد إبراهيم أبو سنة بالزمان الآتي، ستكون الأرض لنا، والهواء لنا، وننعم بأرضنا الجميلة بعد طرد العدو اليهودي المغتصب:

وحدنا والمغول

نتقاسم هذا الزمان الضئيل

الزمان الذي سوف يبقى لنا

وحدنا

كي يجيء الزمان البديل

كي يجيء الزمان الجميل

سوف نبقى

نتكسر فوق المسافات

نتبع آلامنا

ونجمّع أشلاءنا

ونفتح ورداتنا في النسيم العليل

سوف نبقى هنا

وحدنا ويمر المغول(٤٠).

....

(٣) الجـــوانب الفنيـــة:

من النماذج السابقة التي تناولتها بالتحليل، وهي قليل من كثير يتبين لنا أن معظم الشعراء حاولوا الابتعاد عن المباشرة والتقريرية، فلجأوا إلى الصور الشعرية، التي تكسب القصيدة عمقا فكريا وفنيا وهذا يدحض قول الرافضين للإبداع الأدبي المواكب للفعل النضالي لأن جميعه ضعيف فنياً، وهذا مارددنا عليه بالنماذج التي قدمتها لنثبت بطلات حكمهم التعميمي، كما تبين أن الأمر يرجع إلى قدرة الشاعر.

❖ الرمز:

أ- الطفل في فضاء الرمز

عندما شق صوت الانتفاضة قلب الليل، ليعلن للعالم أن الإنسان الفلسطيني لم يقضَ عليه رغم القهر الذي يتعرض له، بل مازال حياً يخرج منه أطفال الحجارة، راضعون من أمهاتهم الدرس الوطني الصحيح، يحملون حزن الأجداد والآباء والأرض المقدسة ناراً حارقة تأكل اليهود المغتصبين

جاءوا ليعلنوا عدم الاستسلام، وأن عظامهم قوية لم تهن بعد، جاءوا ليعطونا شهادة ميلادنا من جديد.

هذه الروح المنوهجة انعكست على الإبداع الشعري، فلم يكن هذا الإبداع بكاء وحزناً وعويلاً، وخوفاً على الأطفال أو لطماً للخدود، وشقاً للجيوب حزنا على استشهاد فلذة الأكباد، بل جاء الشعر ثورة عارمة، تبارك الاستشهاد، ويصور أن كل شهيد في كل بيت فرحٌ وسعادة، جاء الشعر تحريضاً، ومؤيداً، ومشجعاً الأطفال على الاستمرار في نضالهم بسلاحهم الحجري البسيط المقدس، وإنكم به لمنتصرون بتأييد من الله عز وجل.

انفجرت الانتفاضة بركاناً زلزل الأرض وقلوب الأعداء الواجفة، وفجرت في قلوبنا الثورة، وفاضت ينابيع الشعراء بالشعر المشتعل انفعالاً، المبشر بالنصر، والوقوف بثبات في وجه العدو اليهودي المغتصب.

فرمزوا لهم: بالطير الأبابيل وحجارتهم من سجيل، وبالصقور والنسور القوية المحلقة في فضاء الوطن لحمايته، وبالعصافير التي تحمل الأمل الجديد، وبالورود التي يفوح منها رائحة النصر، ومثل الحديد الذي خرج من النار صلباً، وأشد عوداً، وبراكين تنفجر بالغضب تحرق الأعداء وتكتسحهم.

كما رمزوا للنصر بالفجر الجديد، والأقمار، والنجوم، الأمل الجديد.

ب ـ الأرض في فضاء الرمز:

استحوذت الأرض أيضا على قدر كبير من الرموز، بعيدا عن الطرح المباشر، لما في الرمز من ثراء وخصوبة، فالرمز كما يقول صابر نور الدين «كفيل في إصباغ اللغة بمسحة من العمق والشفافية والإيحاء المتفتح الذي يسهم في تنمية وثراء الصور والإيقاع»[٤١]، فالأرض هي الأم، الورد، البركان،

ورمزوا بالأقمار، والنجوم، والجبال بالعلا، والعدو اليهودي رمزوا له بالغول، والليل الجاثم على الصدور، والمغول، والتتار، الطاغي، والظالم، ابرهة، أبي لهب.

جـ ـ استيحاء القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي:

إن تاريخنا الإسلامي زاخر بالرموز المضيئة الثرية التي تحرك ذاكرة القارىء وخياله، رموز قدوة لأجيالنا تغرس فيهم الرجولة، وحب الأرض، والاستشهاد في سبيل الله والوطن بحب مثلاً صلاح الدين، والمعتصم، وخالد بن الوليد لقد مثلت قصة الطير الأبابيل وحجارتها التي من سجيل، مع أبرهة وجيشه العرمرم وفيله الضخم، وأبي لهب، والمعارك الإسلامية مثل معركة أحد التي انتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم، موزاً رئيسة استخدمها الشعراء كثيراً سواء استخداماً مباشراً أم استيحاء، لما فيها من ثراء فني، وهذا ما دعونا إليه كثيرا في كتاباتنا حتى يستغني الشعراء عن الرموز الغريبة عن تاريخنا الإسلامي ووجداننا.

❖ اللغـة :

جاءت اللغة، شاعرية، سلسة، عفوية، تنبض بالحيوية، كما لجأ الشعراء إلى استخدام الاشتقاق اللغوي لإثراء اللغة، وللتعبير عن الحالة النفسية، ودرجة الانفعال مثل وزن فاعل: السافكون، القائلون، الغائبون، الغاضبون. وفعيل: سجيل، فعّال: غلاّب، كرّار.

....

إن الكلمة الطيبة لا غنى عنها في حياتنا لأنها تؤتي أكلها كل حين، أي تظل مورقة في شجرة حياتنا، تحمل الأمل، وتدفع الإنسان إلى العمل

الإيجابي البناء، وإلى التضحية في سبيل الله والوطن، ولا تجعله يقول كما قال بنو إسرائيل لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» (المائدة-٢٤).

الكلمة الطيبة تملأ القلب بالإيمان القوي، الذي يبني الإنسان المسلم الصحيح، لذا ندعو الأدباء والكتاب إلى مراعاة ضمائرهم ويعرفون أن الكلمة أمانة، فعليهم أن يراعوا الله سبحانه وتعالى في أداء رسالتهم. أود أن أشير إلى أن النماذج الشعرية التي قدمتها هي من الإنتاج الشعري عن الانتفاضة الأولى ١٩٨٧، البشارة الأولى، والشرارة الأولى التي أضاءت القلوب، ولم أشأ أن أقدم نماذج شعرية عن الانتفاضة الثانية (سبتمبر أكتوبر ٢٠٠٠) لأن الإنتاج الشعري الذي نشر حتى الآن قليل، وما نشر يدور في المضامين التي تناولها الشعر في الانتفاضة الأولى، ولذا فهو ما زال تحت المتابعة والدرس.

❖ ❖ ❖

هوامش الجزء الأول

١- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٢٠٨- نوفمبر ٢٠٠٠

٢- مجلة المنتدى - الإمارات - دبي - العدد ٥٦

٣- مجلة الحرس الوطني - السعودية - أغسطس ١٩٨٨)

٤- مجلة المنتدى - الإمارات - دبي - العدد ٧٥ - أكتوبر ١٩٧٩

٥- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٥٥ - فبراير ١٩٨٨

٦- المصدر نفسه

٧- صحيفة الخليج ١٩٩٠/٤/١٤

٨- المصدر نفسه

٩- صحيفة الخليج - ١٩٩٠/٤/١٤

١٠- مجلة المنتدى - الإمارات - دبي - العدد (٥٦)

١١- المصدر نفسه

١٢- المصدر نفسه

١٣- مجلة الحرس الوطني - السعودية - يناير ١٩٩٠

١٤- المصدر نفسه

١٥- المصدر نفسه

١٦- المصدر نفسه

١٧- مجلة الحرس الوطني - السعودية - يناير ١٩٨٩

١٨- المصدر نفسه

١٩- المصدر نفسه

٢٠- انتقل إلى رحمة الله في سبتمبر ٢٠٠٠

٢١- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٧٢- يولية ١٩٨٩.

٢٢- المصدر نفسه

٢٣- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٥٦ مارس ١٩٨٨

٢٤- المصدر نفسه

٢٥- المصدر نفسه

٢٦- المصدر نفسه

٢٧- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٥٨ مايو ١٩٨٨م

٢٨- المصدر نفسه

٢٩- المصدر نفسه

٣٠- المصدر نفسه

٣١- صحيفة الاتحاد الحيفاوية

٣٢- المصدر نفسه

٣٣- المصدر نفسه

٣٤- المصدر نفسه

٣٥- المصدر نفسه

٣٦- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٨٤ يولية ١٩٩٠

٣٧- المصدر نفسه

٣٨- مجلة الحرس الوطني - السعودية - يونية ١٩٨٨

٣٩- المصدر نفسه

٤٠- المصدر نفسه

٤١- مجلة المنتدى - الإمارات العربية - دبي - العدد ٢٠٨ - نوفمبر ٢٠٠٠

الجزء الثاني

القصة في الحرب والانتفاضة

القصـــة القصيرة في الحرب

(١) تمهيد :

بدءاً أتساءل عن الحرب ما هي؟

وسنجيب عن هذا التساؤل بما قاله الشاعر زهير بن أبي سلمى:

ومـا الحـرب إلا مـا علمـتم وذقـتم — ومـا هو عنهـا بـالحـديث المرجم

مـتى تبـعـثـوها تبـعـثـوها ذمـيـمـة — وتضـرَ إذ ضـريتـمـوها فـتـضـرم

فـتعـرككم عـرك الرحى بثفـالهـا — وتلقح كـشـافـا ثم تنتج فـتـتـئم

فـتنتـج لكم غلمـان اشـأم كلهم — كـأحـمـر عـاد، ثم ترضع فـتـفطم

منذ قال زهير بن أبي سلمى حكمته الشاملة هذه لم تتوقف الحرب.. بل زادت واتسعت وتطورت فكراً وتقنية حتى أصبحت الآن أشد خطراً مما ذكر زهير بن أبي سلمى باختراع الأسلحة الذرية التي لا تبقي شيئاً على الأرض،

وهيروشيما مثال حي لا ننساه أبداً.

خطر الحرب أصبح شديداً على الأطراف المتحاربة، لن ينجو من دمارها أحد، وسيعاني جميع الأطراف مما تخلفه من خراب نفسي ومادي.

وتظل الحرب حربا.. لها خصوصيتها تصطرع في أتونها ثنائيات متضادة: الحب/ الكره، الحياة/ الموت، الإنسانية/ اللا إنسانية، الشجاعة/ الجبن، وتتباين هذه الثنائيات في المواجهة الفردية أو الجماعية في مواقف لا مكان فيها للاختيار، حيث لا اختيار إلا لوجه واحد إما أنت أو الآخر، ولا تحل المواجهة إلا بموت أحدهما أو بموت الاثنين، فإما «أكون أولا أكون» كما قال شكسبير.

والحرب بهذه الصورة العدوانية التوسعية مرفوضة، إلا إذا كانت حربا دفاعية عن الحق المسلوب، عن الأرض المغتصبة، عن الشرف، عن الكرامة، فهي حرب شرعية يقرها الدين والقانون، سواء كانت هذه الحرب حرباً كبيرة أم مقاومة شعبية لإقلاق وإرهاق المستعمر.

الحرب محورها الإنسان، هو الذي يكتوي بنارها، ورغم هذا يشعلها هو لإشباع غريزة العدوان في نفسه، العدوان على الضعيف ليبقى هو الأقوى كقانون الطبيعة.

أمر الإنسان غريب..

في الوقت الذي يحمل فيه السكين لقتل أخيه، يحمل القلم عله يكفر بقلمه عما يرتكبه بسكينه.

وتبقى الكلمة، لأنها كانت في البدء وستزال، الكلمة/ الإبداع، الكلمة/ الذاكرة، من هنا تتأسس أهميتها كذاكرة للأجيال تحمل في رحمها الماضي والمستقبل.

من هنا أيضا تتحدد أهمية الكلمة الخارجة من بطن الحدث، من عمق الجرح في حينه، إنها الكلمة/ الوثيقة، وشاهد عيان، عاصر الأحداث في وقتها.

مع الكلمة/ الإبداع/ الشاهد المطل من أرض الواقع نبحر في عالم القصة القصيرة وهي تقارب الشعر في تجاوبها السريع للفعل النضالي.

سنتناول نماذج من القصة القصيرة التي كتبت عن الحرب كمقدمة للحديث عن أدب المقاومة شعراً وقصة موضوعنا الرئيس.

(٢) النماذج القصصية:

في قصة «سادس أيام الخلق» لأحمد الشيخ التي كتبها بعد انتصار أكتوبر بشهر واحد (نوفمبر ١٩٧٣)، أي في لحظة وقوع الفعل، وفي غمرة الفرح والانفعال بالانتصار، نجد الكاتب يعبر عن مفاجأة النصر التي غيرت الموازين، وأعادت إلى الإنسان المصري وللعرب جميعا ثقتهم في أنفسهم، تماما مثلما حدث عند قيام الانتفاضة الأولى ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية. تحدث الكاتب عن التمزق الذي أكل الإنسان المصري قبل حرب أكتوبر، وبين الجو السياسي قبل هزيمة ١٩٦٧، وأثر ذلك في الإنسان العربي عامة.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصوير الموقف على الجبهة:

«في مساء اليوم الأخير من شهر شعبان أيضاً وعلى الشاطئ الغربي للممر المائي ذي التاريخ الحافل والسمعة الرنانة، كان أفراد الخدمة المتناثرون على امتداد الموقع يحرسونه يتبادلون عند نقاط الالتقاء حديثاً خاطفا ثم يستدير كل منهم إلى الاتجاه المعاكس ليلتقي في الآخر بفرد خدمة آخر يتبادل معه حوارا خاطفا ثم يعود.. أيديهم على مقابض الأسلحة وعيونهم

ترقب ما يدور على الشاطئ الآخر خلف الساتر الترابي الهائل، وعندما يحين الوقت لتغيير الخدمة يزفر الآخرون في شيء من الضيق لاستمرار الوضع على ما هو عليه، يتساءلون متى تتاح لهم الفرصة للعمل الفعلي من أجل تبديل ما صار رتيبا ومقيتا، على امتداد الشهور، كان الحنين ينمو ويتزايد لاقتحام تلك التلال الممتدة إلى ما بعد قدرة النظر على الاكتشاف، يزدهر الحنين ويشكل عبئاً جديداً.

وكثيراً ما كانوا يتحاورون حول السبب الذي يجعلهم عاجزين عن احتمال النظر إلى هذه الضفة دون فعل. يتساءلون عن إمكانية التسلل خفية ودون أوامر إلى الجانب الآخر وليكن ما يكون، ولما كان الأمر من بعض وجوهه يقل من حيث الأهمية عند البعض منهم أو بشكل آخر كان الأمر فوق قدراتهم على احتمال المزيد من أيام الانتظار فقد دأبوا على محاولات الحصول على إجازات وتفننوا في الحصول عليها بأساليب متباينة، لكنهم عندما ما كانوا يعودون في أخرى يحكون بضيق كيف ضاعت الأيام والساعات في المدن حيث الأضواء أو القرى المعتمة دون إحساس بقيمة التواجد وسط الأهل والصحاب، وأنه لم يكن شيء غير إرجاء الوقت والطواف بلا هدف أو معنى ثم التعرض لبعض المضايقات غير المباشرة.. كانت في عيون البعض حسرة وألم سقيم عاجز على الاحتجاج بشيء على مظاهر الترف الزائد في جوانب المدن، وشيء كأنه الانكسار الصامت يشع من العيون العاجزة عن الدفاع والهجوم»

فالكاتب في هذه الفقرة يصف ما يعانيه الجنود المصريون من صراع نفسي، في أيام الانتظار المملة على الجبهة، وحزن لما يرونه في المدينة أو القرية من ظلام، ألم في القلوب، وانكسار في العيون، وتهب للحظة الهجوم.. للثأر.

ثم يصور الكاتب عملية العبور «في ظهيرة اليوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣

وصلت إلى من كانوا يقبعون في مواقعهم أوامر، تبادلوا نظرات الإفاقة وتحركوا، في خفة النمور المدربة كانوا يتحركون، في وضح النهار. كانت اللحظة المرتقبة قد حلت فانزاحت الهموم القديمة وتحولوا إلى كائنات جديدة، لم يكن الأمر مجرد عبور الجسر أو الحاجز، كان أكبر، اندفعوا بحماس طائر مفلوت من قبضة يد، حلقوا في الفضاء أو تسللوا عبر الأثير وحطوا على رمال الشاطئ الآخر.. عبروا بكل معداتهم ذلك الممر المائي ذي التاريخ الحافل والسمعة الرنانة، وأصبح الممر في لحظة العبور لهم، لم يكن للنار قدرة على تخويف الطائر المفلوت، ولا كان الحديد بقادر على صده أو تقليل سرعتهم، كانت لحظة الصحوة فانساحوا على طول الشاطئ الآخر وبصورة غير محسوبة أو قابلة للتصديق، ذبحوا مخاوف السنوات الفائتة بالاقتحام الجسور، ساح دم الخزي على رمال الشاطئ الآخر وتفجرت على الشفاه الواثقة أغنيات لم يفكروا قبلاً في كلماتها، كوحش خرافي كانوا يتواثبون. ينزاح الحاجز الترابي وترفرف على بقاياه أعلام مصر وعلى بعض الأجزاء منها دماء من سقطوا.. ورفرفت أعلام الدم وتواثب العابرون فانزاح الكابوس الغشيم مرعوبا إلى الداخل. تقوقع في مخابئه وتحصن بحصون يسيرة الاقتحام»

رسم الكاتب لوحة حية للجنود المصريين وهم يعبرون جسور الخوف بقلوب شجاعة، لا تخشى الموت، أنزلوا الرعب في قلوب اليهود وفروا يبحثون عن هرب من النمور الجسورة التي تفترسهم، ورفعوا علم مصر عاليا، بعد أن طهروا الأرض من نجاسة اليهود.

أما فتحي سلامة في قصته «الأميرة ذات الهمة»[1] فيديرها حول سؤال أولاد لأبيهم عن طائرات العدو التي تحلق فوقهم هل يمكن أن تصل إلى بيتهم، سؤال بسيط من أولاد صغار يبحثون عن الأمن والأمان، يجيبهم الأب

بأن الطائرات لن تصل إليهم.. تقول ابنته أن الأمان الحقيقي في ذهاب أخي إلى الجيش حتى لا تأتي الطائرات، يحدث الأب نفسه (طفلي لايدري ماذا يفعل؟ وأنا ماذا أفعل، يبدو أن الطفل يعرف أفضل مني):

يخرج الأب إلى الشارع.. الشارع مملوء بالناس، مذياع البقال يعلو صوته على صوت الضجة في الشارع، أغنية تهتف بالأحرار، رجل يقرأ الجريدة بصوت عال، يلتف بعض الناس من حوله، تختلط الأصوات وتتشابك، لم يرتكب إثما حتى أضربه، كان يسأل وكنت مخطئاً، والآن أنا أجري في الشارع ملتاعا ملهوفا عليه، أشعر أن الكل سعيد، لا أحد ينظر إلى وجهي في أسى، الطفل بخير حتى الآن، الناس هنا يعرفون كل شيء، لو أن الأمر خطير ما قابلت هذا الرضا من الناس، أحجم عن السؤال إنهم يعيشون هناك بقلوبهم بعيد ا.. حيث كل الأولاد تعيش الحرب»

وتحقيقا لرغبة الأولاد الحالمين بالأمان، يذهب الأب إلى الجيش.. يتسلم مهماته، يستأذن لزيارة زوجته وأولاده، ليزرع فيهم جميعا الآمن.. ليعرفوا أنه ذاهب ليطرد طائرات العدو حتى لا تلقي القنابل على أولاده وأهل بلده.. عندئذ شعر الأبناء بالأمان.. وتصيح صغيرته:

- أبي ذهب ليطرد الطائرات

بهذه الكلمات البسيطة يختم الكاتب قصته كاشفا عن حاجة الأبناء إلى الأمان، وإدراكهم أنه لن يتحقق الأمان إلا على يد الأب الذي يحقق أمنية أولاده.

أما محمود البدوي - رحمه الله - في قصته «الحارس»(٢) فتدور أحداثها في منفلوط في اليوم التاسع من أكتوبر، ويصور فيها مشاعر الناس المتوهجة بالفرحة، وراحوا يؤدون أعمالهم في هدوء كأن الحرب لم تشتعل منذ ثلاثة أيام، لاطمئنانهم للنصر، كما يبين غضبهم عندما وقعت فتاة إسرائيلية

بطائرتها التي احترقت، وتؤسر، وترحل إلى القاهرة مع حارس، ويبين محمود البدوي - رحمه الله - أن الحارس قام بواجبه بحمايتها من غضب الجماهير التي تريد أن تفتك بها، ويدير الكاتب حواراً بين «لينا» الأسيرة الإسرائيلية، وبين الحارس بالعبرية التي تعلمها من حارة اليهود التي كان يسكن بها، ولهذا اختاروه لحراستها:

- هل ولدت في إسرائيل

- ولدت في رومانيا

- شاهدت في مجلة أجنبية منذ أسبوع فقط صورة لأسرة رومانية تجلس في حديقة بين الورود والرياحين، أسرة وديعة مسالمة، فلماذا تختلفون أنتم عن جميع أجناس البشر وتريدون تخريب العالم.

- لقد قلت أن الطائرة استطلاعية وأنا لم أسبب الضرر لأحد.

- بعد طائرة الاستطلاع تأتي طائرة القنابل.

- إنها الحرب.

- أجل إنها الحرب، ولا سلام في هذه الأرض مادمتم تشنون الحرب على ظهرها - هذا هو رأيي.

وتعرف «لينا» الأسيرة الإسرائيلية أخبار انتصار الجيش المصري، وهزيمة جيشها، ويصور الكاتب مشاعر الأسيرة حينئذ على لسان الحارس:

كانت تتوقع انتصار جيشهم ولم تكن تتوقع هزيمة كهذه أبدا.. وأصيبت بخيبة أمل مرة.. وغدت سحنتها مخيفة ضاعت منها كل معالم الأنثى.. وخفضت رأسها وراحت تنظر إلى أرضية العربة وجعلني هذا أراقبها بحذر ولا تغفل عيني عنها لحظة»[٣].

ويكشف محمود البدوي عن محاولة «لينا» الأسيرة إغراء الحارس، ولكن

محاولتها باءت بالفشل، وشدد الحارس عليها الحراسة، ويصف الكاتب مشاعر الحارس نحو الأسيرة «وعجبت وأنا أضع يدي على لحمها من كوني لم أشعر بأية عاطفة نحوها.. وهي رشيقة الجسم وتعد جميلة في النساء. كانت تقاطيع جسدها بارزة من خلال القماش الكتاني المشدود، وكانت يداي تتحركان على تمثال من الشمع الجامد.. وربما كانت تتصور أنني أتلذذ من هذه الحركة لأني فتشت الجيوب وقلبتها.. ولمست صدرها وفخذيها.. تحت القميص وفوقه.. ربما كانت تتصور أن في الأمر متعة لأنها طالت.. ولكن إحساسي كرجل كان يغطيه دخان الحرب ويغلفه.. وكنت جامدا وأي ضعف من جانبي معناه ضياعي كرجل»(٤) وكذلك الضابط المسؤول كان «مسيطرا على أعصابه لإحساسه بالمسؤولية التي كلف بها»

يغلب النعاس الحارسين، تنتهز الأسيرة الفرصة، وتنزل من القطار.. يدور البحث عنها وأخيرا يجدونها فيوثقونها بالحبال.

ويسترجع الكاتب جرائم اليهود التي ارتكبوها ضد الأطفال في مدرسة بحر البقر، وما ارتكبوه في أبي زعبل، وسكان بورسعيد، والإسماعيلية والسويس، كل ضحاياهم من المدنيين.

النماذج الثلاثة التي ذكرتها سابقا: أحمد الشيخ، فتحي سلامة، محمود البدوي لكتاب لم يشاركوا في الحرب، ولكنهم استطاعوا بما لهم من قدرة فنية، وصدق المعايشة للحظة الحرب أن يقدموا إبداعا قصصيا بعيداً عن المباشرة، ولكن يتمتع بتقنية جيدة.



كما بينت أثر الحرب في القصة القصيرة المصرية، أبين أيضا أثر الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت سنوات طويلة، استنزفت الشعبين العراقي والإيراني في القصة القصيرة العراقية.

ففي قصة «طيور الحب والحرب»[٥] للقاص العراقي محمود سعيد، يبين الكاتب العذاب الذي يعانيه أب فقد ابنه المهندس في الحرب، لإصراره على مبادئه التي منعته من دفع رشوة لأحد الضباط لإنقاذ ابنه من الموت كما فعل صديقه وأنقذ ابنه من الحرب، فيصف الكاتب احتفال الشباب بتخرجهم، ثم في صباح اليوم التالي التحق كل منهم بوحدته، وألحق «سلام» بلواء مشاة بدلا من إلحاقه بوحدة هندسة الطرق.

يصف الكاتب فرحة «سلام» بنجاحه، فذهب إلى السوق مع أصحابه «اشترى زوجا من طيور الحب الصغيرة الملونة مع قفصها المعدني، كان ريش العصفورين أشبه بقوس قزح، خيوط حمر قانية في محيط من الأزرق والأخضر والأصفر، بما تبقى من النقود التي نفحها له أبوه، اقتنى قميصاً أبيض مخططاً بالأزرق وحذاء أحمر»[٦] وبعد احتفال الشبان بتخرجهم، التحق كل منهم في صباح اليوم التالي بوحدته، لم يستطع الأب والأخت توديع ابنه «سلام» وودعته الأم بالعناق والبكاء.

تمضي ثلاث سنوات منذ سلم «سلام» نفسه لوحدته دون أن يعلم عنه أحد شيئاً، فيقول الكاتب: «وها قد مضت قرابة ثلاث سنين على ذلك الضحى، ولا أحد يعلم عنه أي شيء، بعد بضعة أيام على ذهابه اشتعلت الجبهة إلى الشرق نارا، قبل ذلك كانت المدينة تقصف ثلاث مرات في اليوم، في مناطق مختلفة عشوائية، كل مرة بحدود ثلاثين قنبلة مدفعية، وكان الناس يسمعون القصف والقصف المعادي، يميزون بينهما، يحددون مكان انطلاق وسقوط القنابل.. لكنهم بعد اشتعال الجبهة انطلقت القنابل كل لحظة، وفي معظم الأمكنة»[٧].

ويستمر الكاتب في تصوير ضحايا القصف الشديد من أبناء البلد «خمدت المعركة بعد أسبوعين لكن المستشفى العسكري بدأ يستقبل في اليوم الثاني البرادات، في البدء براد واحد فخم بطول أربعين قدما، تعكس أشعة الشمس

على صفائح الألمنيوم التي تغلفه وميضا حادا يحرق المقل، ثم تكاثر العدد، كما تنقسم الأميبا، لم تستطع أمه إحصاءها، كانت تبكي فقط»[٨].

ويكشف الكاتب مساوىء الحرب وما تحدثه في النفوس من تخريب، تنتشر الرشاوى، فبخمسين دينارا تدفع لرئيس المهندس «سلام» يوضع في الخطوط الخلفية. ينقل إلى المستشفى العسكري قرب بيته.

رفض والد سلام هذا الكلام من صديقه لإنقاذ ابنه لأنه لا يتفق مع مبادئه، ومات ابنه في الحرب، وشعر بالندم لأنه لم يفعل كما نصحه صديقه لينقذ ابنه من الموت، ويحدث والد سلام نفسه:

«صمت، خناجر قديمة في الداخل بعد هذه الأشهر الطويلة من الحرب وهو يسكن محلة كلها عسكريون، ضباط كبار، لم يسمع بهذا الشيء إلا الآن. عنده حق هذا النائب الضابط. من يصدق، الإنسان المثقف المهندس المعماري = خمسون دينارا.. تفو ألف تفو على الزمان، على القائد، على الحرب. قتلت ابنك يا جمعة، مبادئك التافهة قتلت «سلام» تأبى التغلغل بين الناس، تأبى المجاملة، تنعكف في دارك على القراءة لا تختلط بالناس، رفضت مسح الأكتاف، الانجرار مع القطيع. منصب مدير عام نائب للمحافظ رئيس للمحاكم، ظللت كاتبا أول في قضاء لا يحل ولا يربط، رفضت أن تساس بالسوط والجزرة. وهذه هي النتيجة، شاب يعدل الدنيا وما فيها راح ثمن مبادئك.. لو تواصلت مع الناس لعرفت سر اللعبة، دفعت رشوة أنقذت ابنك.. تحمل المبادىء.. وغيرك يدفع الثمن يا لك من جبان اتفو.. ألف تفو عليك يا جمعة»[٩].

هكذا يبين الكاتب ما تحدثه الحرب في النفوس من تخريب، وضعف، فالأب «جمعة يأكله الندم لأنه عاش في قوقعة المبادىء، ولم يعش مع الناس يفهم كيف تسير الدنيا.. لو فهم ذلك.. ما مات ابنه، وما تحدثه أيضا من

تخريب اقتصادي، هذا اعلاوة على الضحايا الذين يروحون ضحية الحرب «الجثث الممزقة في أرض حرام، أطراف مقطوعة، بطول مجوفة محروقة بالقذائف، معجونة بالدم والتراب، رؤوس مشوهة، سبعة أطراف ورأسان في حفرة واحدة، يد من لرأس مَن منفصلة عن جذع مَن؟ موجة الدماء التي حصدت أرواح البراعم الذين لم يستمتعوا بأي شيء في حياتهم، ما أن بلغوا الرشد حتى أصبحوا طعاماً للكلاب والنسور والغربان»[١٠].

الكاتب في هذه القصة يعري الحرب بوجه عام سواء كانت حرباً بين العراق وإيران، أم أي حرب أخرى، فالحرب هي الحرب كما وصفها زهير بن أبي سلمى.

لقد استطاع الكاتب ان يصور مآسي الحرب وأثرها في تخريب الإنسان – العنصر الهام في المجتمع، والذي يحتاج بناؤه إلى سنين طويلة، وقد نجح في ان يجعل القارىء يشمئز من الحرب وويلاتها بما ذكره من وصف للضحايا. وفي قصة «زوجة محارب»[١١] للكاتب العراقي مهدي عيسى الصقر يبين أيضاً ما خلفته الحرب العراقية الإيرانية من جرحى، وعجزة، ضاعت آمالهم وآمال أسرهم في الحياة. لهذا يكره الشعب الحرب لما تحدثه من خراب ودمار في المباني والنفوس، وما تخلفه من جرحى يعيشون عالة على المجتمع.

تدور القصة حول زوجة عامل تعمل حارسة للمباني الجديدة، تعيش مع زوجها وابنها في عشة صغيرة، يكتشف بطل القصة مرض زوجها فيسألها عن مرضه، فتجيبه بأنه كان يحارب، وأصيب في ساقه، واستفحل الجرح، وقرر الأطباء قطعها، وهي تبيع الخبز بجانب حراستها للمبنى، رأى بطل القصة صغيرها يلعب فقال لها مجاملاً: «ابنك الصغير هذا سوف يكبر بعد سنين ويغدو بطلاً هو أيضاً يدافع عن وطنه مثل أبيه تماماً».

انقلبت ملامح المرأة في الحال، نظرت إليه بإمعان لحظة طويلة كأنها

تحاول ان تعرف أي نوع من الناس هو، كانت عيناها قاسيتين، التمع فيهما بريق غضب مريع. لم يندهش الرجل، وشعر بشيء من الارتياح، إذ اكتشف ان هدوءها الذي حيره في البداية كان هدوءاً ظاهرياً. حاول ان يبتسم لها معتذراً من كلماته الفظة، إلا انها أشاحت بوجهها عنه، رآها تبسط كفيها فوق فوهة التنور تتحسس بهما حرارة الحجر المشتعل في القاع»[١٢].

اما الغزو العراقي للكويت وما أحدثه من شرخ نفسي في الإنسان العربي، وزرع الخوف والحذر بين البلاد العربية، فقد أثر هذا الغزو من أخ عربي لبلد عربي، الأمر الذي كان مستبعداً، في نفسية الإنسان الكويتي، وهز ثقته في البلاد العربية.

لقد عبر الأدباء الكويتيون عن معاناتهم النفسية، وما أصاب وطنهم من تخريب ودمار، عن هذا كله في إبداعهم الأدبي، بصورة فيها المرارة من غدر الأخ، عبروا عن الجرح الذي لن يندمل. ولم يقف الأمر عند الأدباء الكويتيين بل شاركهم الأدباء في البلاد العربية، فنددوا بالغزو، وعبروا عن حزنهم وتمردهم على الشعارات التي كانت تحملها العراق لجمع الصف العربي.

كان الغزو تجربة مريرة هزت كيان الإنسان العربي، كما هزت الإنسان الكويتي، وقد عبرت الكاتبة ليلى العثمان عن هذه المأساة التي عايشتها في مجموعتها القصصية «الحواجز السوداء»، وليلى العثمان تتصف كتاباتها بالصدق، وتجسيد المشاعر في صور فنية شاعرية، إن صدق الكاتبة في وصف دقائق النفس البشرية وإخلاصها لفنها – كما يقول عبداللطيف ارناؤوط في كتابه «ليلى العثمان رحلة في أعمالها الكاملة» – جعل آثارها الفنية أعمالاً نموذجية قابلة للتحليل؛ ذلك ان الكاتبة المبدعة لا تخط على الورق إلا ما تشعر به أو يتملّى في نفسها بصدق، فمادة أدبها وثائق مفيدة للدراسات الأدبية والنفسية. وقد اتضح ذلك في قصص هذه المجموعة التي استطاعت

الكاتبة بالصورة الفنية ان تجسد المأساة، وتبرز صمود الإنسان الكويتي.

الكويت وطناً، بيتاً، إنساناً، ذكريات تتحرك عملاقة تتمثل في الإنسان، في الكلمة، هذا ما عبرت عنه ليلى العثمان في قصص هذه المجموعة، صاغت ألفاظها من مشاعرها، من الحزن الذي لم تستسلم له المدينة، «لم تستسلم المدينة لحزنها، ولم تفقد عزمها القديم، في خلال أيام كانت أرحام الأمهات الباسلات تتواصل، وسواعد الشباب النضرة تتواصل، وأكف الصغار المشحونة بالغضب تتواصل، وقلوب العذارى النابضة بربيعها تتواصل، وعزائم الرجال الشائبة رؤوسهم تتواصل، وأقدام العجائز المحناة بطين الأرض تنفض عجزها، وتتواصل، أمواج البحر بعزوق النخلات الحبلى تتواصل، الرمل والعشب رؤوس دبابيس تتحول وتتواصل، حمامات البيوت الزاجلة تفرد أشرعتها وتتواصل، كل شيء تواصل حتى غدت المدينة الواسعة ومناطقها القريبة والبعيدة قلباً واحداً يقسم: أن لا مكان للجراد» (ص ٣٧). وينكشف الرمزالمقصود بالجراد حين تقارن الكاتبة بين الجراد الحقيقي الذي كانوا يصطادونه، وبين الجراد الرمز للغازي العراقي، وينغرس الإنسان الكويتي في رمال وطنه وإرادة شامخة تأبى عند الكثير ان يتركوا الكويت، وينطلق السؤال حائراً في ص ٧٦:

«لماذا نهاجر وإلى أين؟

«ويصرخ الطفل في وجه أمه

«لا أريد ان أسافر: أريد الكويت

«وتظل الكويت في قلب الطفل يرى قمرها في كل مكان يرحل إليه:

«آه يا قمر الكويت

«يذكرك:

«هذا قمر عُمان

«لا هذا قمر الكويت. يبحث عني يجيء أجمل وأبهى

«وتغتسل المشاعر في البحر، في ذكرياته فأبو صالح يعشق البحر، يتجشأ زفره، في الأماسي يرتحل إليه سائراً قاطعاً شارع الأسفلت الحديث. لا تتآلف خطوته مع الأرض حتى تلامس» (ص ٧٨).

هو البحر يقرأ أبو صالح أمواجه سطراً سطراً، تكشف له عن السر المخبوء في الغيب، يعلن على الملأ نبوءته: «سيشتعل البحر، والناس تحمل أمتعتها، ويضحك منه الناس، ويظل يحكي، وهم يضحكون، لا يصدقون، ويظل يحكي، حتى تتحقق النبوءة، ويشتعل البحر فعلاً، ويحمل الناس أمتعتهم فارين من النار، وكم نبههم ولكنهم لم يصدقوه:

– لا تشكّو بكلامي. والله أشوف البحر يشتعل، والناس شايلها شلايلها (أمتعتها) وتطير» (ص ٨٨).

وظل الناس لا يصدقون أبا صالح حتى وقعت الواقعة، ورجت الأرض رجاً، واشتعل البحر فعلاً، وفر الناس، إلا الآباء والأجداد، الذين رفضوا مغادرة الكويت.. لمن يتركون البحر، لمن يتركون الأرض، وتحملوا العذاب والتنكيل رجالاً ونساء.

البحر الصدر الحنون، الذي يلجأ إليه الإنسان في فرحه وحزنه، فهو حياته وذكرياته، ضياعه ضياع لعمره، وبقاؤه بقاء لحياته «عاد البحر.. أخيراً عاد.. قلبك يعلنها، تريد ان تصرخ بها، ان تشهد السماء على الأمل المولود، ترفع رأسك، تلمح طيور النورس فاردة أجنحتها في الأفق ترقص وكأنها تحضن الفضاء ولأول مرة تعلو، تهبط، تعانق الموج، تباركه، تسمع ضحكتها وتغاريدها ونداءاتها تحسبها تهنؤك بعودة البحر معافى رغم الخراب المنتشر

على امتداد السواحل وقلب المدينة وأذرعتها وعمقها كله. كفك تهرش الرمل، تسطر الكلمة، تحفرها، وعاد البحر، وعاد البحر» (ص ٣٣).

وهجم الجراد وأكل كل شيء، وكانت الصدمة، والدهشة، واللعنة، والحزن، والمقاومة، وينتفض اسم الكويت عملاقاً يزلزل الأعماق فلا يعرف الإنسان الكويتي إلا الشهادة، لتشهد رمال الكويت انه لم يستسلم، وكان التحدي رغم القتل والتنكيل، فامرأة تحبس نفسها سبعة شهور تحدياً حتى يتحقق النصر: «حلفت يميناً سبعة شهور حبست نفسي في بالبيت، لا أخرج إلا إلى البحر أغتسل وأصلي، ولو أموت الآن لا يهمني تستدير عنك، تبتعد مخلفة رائحة ملحها وارتياحها ودعائها وصوتها بحرارة» (ص ٣٦).

نهب واغتصاب لكل شيء يقع في طريقهم، للزوجة أمام زوجها وأولادها، فهذه أم تنصح ابنها ان يختفي، ولا يظهر أبداً مهما فعلوا بها حتى لا يقتلوه، ويرى الابن اغتصاب أمه «المشهد أمامي، أنظر من خلال فتحة التكييف الملوثة بالغبار القديم، وأنا ابنها العاشق لا أتحرك، لا أجرؤ ان أقاتل وأدفع عنها أذى الأنياب، لست ضعيفاً، لكنه صمودي المقهور الذي يحقق لها الراحة، هي لا تريدني ان أموت، وأنا لا أريدها ان تموت حزناً علي، تمسكت بتحذيرها» (وجه الذئب ص ١٥).

وتزلزل الشاب كلمة والده «عسى الولد ما شاف شيء؟ أعرفه شهماً ويحبك، ان كان رأى لما توانى عن الدفاع عنك» (ص ٦٥).

ويحطم الابن سور التحذير «لا تكبلي أقدامي، لن أتردد، ليكن الحزن أليماً. لا بأس ان يأتيك جسدي ملفوفاً بقماش ملون، أحمر بلون دمي، أخضر بلون نخلتنا، أبيض بلون قلبك، أسود بلون حقدنا المولود» (ص ٧٥) ويخرج الابن «الليل أسود يهوم حزيناً. السماء مبللة بالغبش. هي رطوبة آب اللعين، خطوتي الأولى مترددة، والثانية تمتد، الثالثة تشب، الرابعة تقفز، الخامسة

تنطلق، السادسة تطير تبحث بإصرار عن وجه ذئب اغتصب أمي» (ص ٧٥).

وتقارن الكاتبة بين الجراد الحقيقي الذي كانوا ينتظرون موسمه لاصطياده وبين الجراد /الرمز/ العدو الذي تفزع منه المدينة «مدينتنا اليوم تفزع، ترفض قدوم الجراد، وتخشاه وتبتلع صرخات الذهول والعذاب ودموع الجروح المفتوحة تستغيث طالبة الرحمة، والنجدة للعروس التي اخضرت صحراؤها واتسعت شواطئها، وتزايد خيرها ولم يعد للجراد موقعه في القلوب أو الأحشاء» (ص ٣٧).

شوه الغزو العراقي كل شيء جميل في الكويت، مواسم الفرح، البحر، الذكريات، ولكن لم تستسلم المدينة للحزن، بل جمع أهلها شتات نفوسهم، وواجهوا العدوان، رجالاً ونساء، ويعلن أبو صالح العجوز المقاومة النفسية المتحدية للعدو برفض ترك الأرض، والتمسك بها لأنها عمره، تاريخه، كان أبو صالح رمزاً للشباب في المقاومة «كانوا يستمدون منه قوة تثبت أقدامهم، وإيمانهم، وفعلهم. لم يخطىء يوماً ويعلن ان الأرض تزول إلى الأبد. دائماً، حتى وهو يمضغ لقمته، يردد الكويت لأهلها بين وقت وآخر يفتقدونه في البيت، يدركون دون سؤال ان الحنين يتلاعب بقلبه فيغادر إلى بيته القديم، يتشمم عطره، يتفقد تاريخه ويقلب أغراضه هناك يبكي أكثر حرية، يصلي، وينام أياماً ثم يعود» (ص ١٠١).

ويستمر الغضب التنفيسي «انفجرت قاذفة دمامل الوجع الثابتة كالشوك بداخلي. لم أعبأ بحرسهم حول سفارتنا يرتعون خطواتي الراكضة بفرح الفراشات. صرخت «تعيش الكويت حرة يا كويت. وحين وصلت باب السفارة سجدت، بكيت، توضأت، برائحة بلدي. ورفعت العلم، هتفت، غنيت، ولم أهتم للعيون التي تلاحق فرحي» (مايزال الحداد قائماً ص ١١٣).

لقد ترك العدو كل شيء في الكويت خراباً «تركوا كل شيء. الخراب،

الموت، حسرات القلوب، والحرائق والصحراء المزروعة بالألغام تنتظر عثرة طفل، قدم عجوز وشوق امرأة لبيت شعر. الأسلحة الثقيلة والخفيفة تلبد في كل مكان. رغم نشوة النصر تخاطفته الأيدي، خبأته في البرك، والمخازن، وسراديب البيوت، ربما بانتظار عدو آخر مجهول!! فالليل مازال يفرش عباءته السوداء رغم أغنيات الفرح والتحرير، وهطول العاشقين من المنافي يقلبون الأرض والأطفال الصامدين، مايزال حداد الأمهات والزوجات، والنفط مايزال يدفق حريقه الأسود إلى الصدور بانتظار ان يزفره ذهباً إلى أحضان الأصدقاء» (مايزال الحداد قائماً ص ١١٦).

ولم ينهزم الإنسان أمام المدافع والحواجز المغروسة في كل مكان. وقد آثرت الكاتبة ان تعطي صورة تسجيلية مباشرة، من خلال الحوارات لتبين كبرياء الإنسان الكويتي، وعدم استسلامه، ومقاومته، العنيدة التي لا تخضع للعدو رغم العتاد الرهيب، صورت الكاتبة ذلك في قصة «حواجز مختلفة الوجوه» في كل حاجز تكشف عن مواجهة مباشرة مع العدو، وتعني بها مواجهة الإنسان الكويتي مع العدو، ومع نفسه هل سيضعف أم سيصمد، ليحمي كبرياءه، وأرضه.. ليثبت للعدو انه لن يهزم الإنسان، هذا هو الإنسان الكويتي، رجالاً ونساء، الكل يقف في مواجهة مباشرة مع الغازي، ليثبتوا ان الإنسان الكويتي لن ينهزم، وانه يمتلك إرادة التحدي مهما كانت هذه التحديات، فهذه امرأة كويتية تتشبث بهويتها الكويتية أمام الجندي العراقي في نقطة التفتيش الذي يحاول إذلالها وفرض الجنسية العراقية فينفجر داخلها متحدياً «أحسست قلبي يبكي ذلك الزمن الذي مضى، قبل انتشارهم كالفئران في مدينتي، لم يكن يهمني ماذا أكون، عراقية، أردنية، لبنانية، أي شيء كنت عربية تختلط كل دماء العرب بعروبتي، لكنني أنفر ان أكون إلا كويتية. هذا الإحساس يمزقني، ليته الكلب يفهم، ويتركني أفخر ولو للحظة

أمامه متحدية غضبه وسلاحه، أنني كويتية، أنني أسيانة لحد الموت ان أتنصل من عروبتي التي تشوهت، لكنه بصلابة يصك على أسنانه، يلقي بالبطاقة، يدوس عليها، يسحقها على الأسفلت. النذل سحق وجهي تحت أقدامه» (ص ٣٥).

(٣) الجوانب الفنية:

الحزن يصيب الإنسان بشفافية تتجلى في رؤيته المستقبلية وحساسية شديدة تبدو في اختياره أداته التعبيرية. وليلى العثمان في هذه القصص حزينة ولكنه حزن مشحون بالغضب والرفض، والتحدي، ولكنها لم تفقد شفافية الرؤية المستقبلية المؤمنة بالنصر كما في قصة «البطاقة»، «الطريق أمامي رغم الحواجز والآلام تتسع، أنظره بالمرآة الصغيرة واقفاً مكانه.. يصغر.. يصغر.. حتى يتلاشى» (ص ٣٠).

- الأسلوب شاعري ترسم به الكاتبة لوحات فنية، فلنقرأ هذه اللوحة من قصة «وعاد البحر» التي تعبر فيها عن فرحة النصر والعودة «أخيراً عاد قلبك يعلنها تريد ان تصرخ بها، ان تشهد السماء عل الأمل المولد، ترفع رأسك، تلمح طيور النورس فاردة أجنحتها في الأفق المعتم، ترقص وكأنها تحضن الفضاء لأول مرة، تعلو، تهبط، تعانق الموج، تباركه، تسمع ضحكتها وتغاريدها ونداءاتها، تحسبها تهنؤك بعودة البحر معافى رغم الخراب المنتشر على امتداد السواحل وقلب المدينة وأذرعها وعمقها كله. كفك تهرش الرمل، تسطر الكلمة، تحفرها «وعاد البحر» بضعة أعشاب طازجة مستريحة بقربك. تلملمها، تزين بها الكلمة المحفورة، تبدو أجمل.. أجمل.. تود لو تحملها برفق وتغرسها داخل قلبك حتى لا يطالها الموج ويحسمها، تسيج الكلمة بالأصداف الحصى، تحس دفأها يحنو عليها، يمزق جدران الحزن ويفتح بوابات

الأعراس قادمة» (دعاء البحر ص ٣٣).

- تضمين القصص بالمأثورات الشعبية التي تتلاحم مع نسيج القصة مما يعطي القصص عبقاً تاريخياً يحرك الوجدان ويفجر ذكريات الماضي فيزداد الإنسان الكويتي تمسكاً بتراب وطنه.

- دقة اختيار الكاتبة للمواقف التي صاغت منها القصص، المواقف فيها حدة تبرز التحدي للغازي فهذه امرأة تحبس نفسها سبعة شهور وأقسمت الا تخرج إلا بعد تحرير وطنها «حلفت يميناً، سبعة شهور حبست نفسي في البيت، لا أخرج إلا إلى البحر، أغتسل، وأصلي، لو أموت الآن لا يهمني، تستدير عنك، تبتعد مخلفة رائحة ملحها وارتباطها ودعائها، وصوتها بحرارة» (ص ٣٦).

وهذه امرأة أخرى تتحدى عسكر الغازي المنتشرة في نقط التفتيش المنتشرة في شوارع الكويت، تتحدى قوته الغاشمة، عقله الغبي، وتعلن تمسكها بهويتها الكويتية التي لا ترضى بغيرها بديلاً.

- في قصة «وجه الذئب» يغتصب الجنود الغزاة أماً تحت سمع وبصر الزوج والابن، ولا يتحرك الزوج، ولا الابن خضوعاً منه لنصيحة أمه خوفاً عليه من الموت، ويشهد الابن اغتصاب أمه، وظل في مخبئه، يحرقه الحقد والصراع بين مهاجمة العدو وبين الخضوع لنصيحة أمه. وفعلاً يمسك نفسه، ثم بعد ذلك بعد ما رأى أمه ممصوصة منكسرة تأخذه الحمية ويأخذ البندقية ويبحث عن وجه ذئب اغتصب أمه. والكاتبة في هذا الموقف لم توفق إذ كان من الأفضل والأقوى ان ينتفض الابن في لحظة الاغتصاب انتقاماً لأمه، ولأبيه.

- أبرزت الكاتبة دور المرأة الكويتية في المقاومة، ووقوفها متحدية الحواجز السوداء المنتشرة في شوارع الكويت، وفي التحريض على المقاومة، وفي

تمريض الجرحى. وتمسكها بهويتها الكويتية ورفضها أي هوية أخرى.

- في قصة «طاقة» تبين الكاتبة اعتزاز الإنسان الكويتي رجلاً وامرأة بهويته لأنها وجوده، وهذا جميل، ولكن لا يؤدي هذا إلى التنصل من العروبة، صحيح ان غدر الآخر قاس وشديد لكن لا يؤدي إلى التنصل من هويتنا العربية تحت أي ظرف من الظروف خصوصاً وأن باقي الإخوة العرب لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل هبوا للدفاع عن الكويت، ولكن اعتقد ان ما لفظت به إحدى الشخصيات في قصة «بطاقة» قولها «أحسست قلبي يبكي ذلك الزمن الذي مضى، قبل انتشارهم كالفئران في مدينتي، لم يكن يهمني ماذا أكون عراقية أردنية، لبنانية، أي شيء، كنت عربية تختلط كل دماء العرب بعروقي، ولكنني اليوم أنفر ان أكون إلا كويتية. هذا الإحساس يمزقني، ليته الكلب يفهم، ويتركني أفخر ولو للحظة أمامه متحدية غضبه وسلاحه، أنني كويتية، أنني أسيانه .. لحد الموت ان أتنصل من عروبتي التي تشوهت، لكنه بصلابة يصك على أسنانة، يلقي بالبطاقة على الأرض، يدوس عليها ليسحقها على الأرض» (ص ٢٥).

هذا الرفض للعروبة أعتقد انه موقف انفعالي من هول الصدمة، ما تلبث ان تعود إلى عروبتها بعد عودة النصر.

الحزن يفجر شتى المشاعر المتناقضة، الحب والكره، القبول لبعض الأفكار والرفض لبعضها الآخر، ولكن لا يبقى في النهاية بعد زوال الحزن، وأثر الصدمة إلا ما رسخ في وجدان الإنسان من أفكار صحيحة هي البوصلة التي توجهه الوجهة الصحيحة وتحفظ توازنه في وجه العواصف فلا تقتلعه.

وهذا ما صورته الكاتبة ليلى العثمان في هذه القصص، لجأت إلى كل العناصر الأساسية: الأرض، الذكريات، التراث المكونة وجدان الإنسان الكويتي المحرضة له على الانتفاضة دفاعاً عن شرفه ووطنه.

أما الكاتبة ثريا البقصمي فتقول عن مجموعتها «رحيل النوافذ»: «إن مجموعتي القصصية هي شهادة جديدة ضد ذلك الزمن المجنون.. وهي تكملة لشهادتي الأولى في مجموعة قصص «شموع السراديب» حيث نقلت بصدق كبير إحساسي، انطباعاتي، ومعايشتي، لتلك الأيام التي سجلها التاريخ على جدران المأساة البشرية» (ص ٧).

لقد كتبت ثريا البقصمي قصصها بحب كبير، جسدت أحداثها «أتخيل لحظات جنوني وأنا أرسم العشرات من اللوحات الحاملة وجوهاً خضراء لشباب أسقطهم رصاص المحتل فاللوحات التي رسمتها في فترة الاحتلال كانت شهادة حية جسدت صراع الفنان مع لغة الإرهاب والقمع ونحر الحريات».

في هذه القصص تصور الكاتبة ممارسات العدو العراقي الفظيعة مع الكويتيين من سلب ونهب واعتداء على العرض والشرف.. لقد استخدم الغازي كل الوسائل لإحداث التخريب المادي والنفسي ليزرع اليأس في نفوس الكويتيين ليستسلموا لأوهام الزعيم..

ولكن سقطت الأوهام وتحطمت على صخرة المقاومة الشعبية رجالاً ونساء التي جسدتها الكتابة بقلمها وريشتها فعبرت عن مواقف صلبة عنيدة جسدها أفراد الشعب والأسر الكويتية التي قدمت أرواحها فداء للوطن، فهذا جريح يصر على المشاركة وهو لم يتم شفاؤه، وهذه أسرة تساعد في تمريض الجرحى، فسعاد فتاة، تقوم بتمريض مقاتل في بيت الأسرة «آه لو صدق فنجانك يا سعاد وشفيت ساقي الجريحة! والله لأركض في الأزقة الضيقة.. تحت جنح الظلام أحمل رشاشي لأصيد به الأوغاد.. سأصيدهم كالذباب أهشم رؤوسهم.. طاخ.. طاخ.. طاخ.. (قلبها الأخضر ص ١٣).

لقد أجهض العدوان حلم سعاد كفتاة من حقها ان تحب وتتزوج وتنجب

أطفالاً. لأن المعتدي يمقت، يريد أن يخنق الحب وكل العلاقات الإنسانية الجميلة. «لقد زرعوا التشاؤم والقلق النفسي والتوجس من المستقبل. بصراحة لدي شعور بان هناك من سيسرق عيني حبيب تلك المرأة، ثم أنا أكتب لأقتل ذلك الغضب المتسرب إلى أناملي» (رجل بلا عينين ص ٢٠).

لقد قتل الغزو الغادر كل المعاني الجميلة «فالزمن الحالي مقبرة لكل المشاعر الإنسانية الجميلة، لقد زرعوا في داخلنا عوسج الموت الذي لا يكف عن بث رائحته الكريهة» (رجل بلا عينين ص ٢١).

من لحظات اليأس يبزغ الأمل ويمتد حتى يغشى عيون الأعداء.. ينتصب عملاقاً في طفل في شاب في امرأة يرفعون كلهم راية المقاومة لتعلن ان الشعب لا يموت أبداً، فالزوجة بجانب زوجها وهو يجتاز حواجز التفتيش، إنها رغبة التحدي ولو أدى هذا إلى فقدان الزوج.. فقدان الحب.. لأن كل شيء يهون من أجل الوطن.. «ووقع العصفور من على زند البحار، وتخبطت عروس البحر في شباك حزنها وقلقها، بعد ان خافت من سرقة عينيه، فهي تعلم بان زنزاناتهم المظلمة العفنة لا تسمح لحوريات البحر بدخولها، وعصافير الشوق تخر عند عتبات أبواب الزنزانات، لقد بثته خوفها وقلقها صباح ذلك اليوم الذي اعتقل فيه» (رجل بلا عينين ص ٢٢).

لقد زرع العدو الموت بالجملة ودفنهم بلا كفن، وفي لمحة ذكية كشفت الكاتبة عن رداءة العدو في هذه الجملة التي تحمل كل الأسى والحزن في حديث بين شخصيتين عن القماش الأبيض. «لقد حصلنا عليه من مخازن معسكرات الجيش في أول أيام الغزو واستخدمناه، أكفاناً لموتانا.. لم نعد بحاجة إليه، أوامرهم صدرت بدفن الموتى الكويتيين بدون أكفان.. أوامر تحمل عقاباً صارماً بحق الأموات» (كانت هي الشاهد ص ٢٨).

وتواصل الكاتبة كشف فظاعة العدوان العراقي وممارساته غير الإنسانية،

يقتل الشباب أمام أهاليهم ويترك جثثهم في الشارع ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه المقاومة، ولكن لم يزد هذا الأهالي إلا إصراراً على المقاومة للدفاع عن كرامتهم.. عن عرضهم. «وأمام الجمع الغفير المسيطر عليه شعور الذعر، أسندت إلى الحائط تسعة أجساد شابة شوهتها لغة التعذيب.. الورقة التي وقعها (أي القائد) حملت هذه الجملة «تم إعدام الخونة رمياً بالرصاص.. الأوامر العسكرية أن تترك الجثث في العراء، لتبقى موعظة للآخرين» (كانت هي الشاهد ص ٢٩).

وظلت الشاهدة على فظاعة العسكر هي الشاهدة والحالمة بإهداء قطعة القماش البيضاء للجثث الملقاة في العراء «وتبقى هي الشاهد الحالم بإهداء اللفافة إلى كل الجثث المغلفة بالصقيع الأخضر» (كانت هي الشاهد ص ٣٠) وصادر الضباط لفافة القماش «صاحب البزة العسكرية المشحونة بالغضب صادر لفافة القماش.. أصدر أمراً لترسل حالاً إلى بغداد إلى جماعته إلى امرأته المهجورة منذ ان بزغت شمس ام المعارك».

وتصور الكاتبة دور المرأة الكويتية وصمودها أمام تعذيب العسكر العراقيين «كل ما فعلناه بها وهي مازالت صامتة الجدار.. النساء عندنا بعد حفلة تعذيب واحدة يسردن حكايات تقضي على عشيرة بأكملها.. نساؤها غير شكل.. عناد أحمق» (دائرة البساطير ص ٣٤).

في «رحيل النوافذ» يرسل الحبيب، بعيداً ويتسرب الحزن إلى الحبيبة المنتظرة في النافذة عودة الحبيب.

كان كل ما فعلته لقتل مشروع حب كتب عليه الفشل منذ بدايته، وهو انها أغلقت زجاج النافذة ثم ألصقت أرنبة أنفها بالزجاج البارد وانتحبت بعنف، وهي تشيع سرباً من الأحلام اليقظة، محلقاً في سماء مراهقتها الأولى (رحيل النوافذ ص ٥٤).

«وتظل ترقب الفتاة الشارع الذي تطل عليه من خلال نافذتها، مشطته بنظراتها غير المستقرة لم ترعبها أشكال الآليات العسكرية العراقية وهي تعذب الاسفلت بسرعتها العشوائية، لقد اعتادت شكلها القميء، المتسلق لظهر المدينة العادي» (رحيل النوافذ ص ٥٦).

ويعود الحبيب بعدما أنجز مهمته السرية.

وفي قصة «العجز الأبيض» تصور عجز الكاتبة عن الكتابة، لقد أجهضت الصدمة الرغبة في الكتابة.. لقد أحست بالشلل «ان السبب يعود للصدمة النفسية التي تلقيتها في صبيحة اليوم المشؤوم». (العجز الأبيض ٦٢) ولكنها رغم توقفها عن الإبداع، فإنها لم تتوقف عن كتابة المنشورات السرية.

وهكذا صورت ثريا البقصمي بطولات الشعب الكويتي الذي جمع إرادته ووقف في وجه الغزو كل حسب قدراته وإمكاناته.. المهم ان يشارك الجميع في المقاومة..

ثريا البقصمي أديبة وفنانة تشكيلية أقامت العديد من المعارض الفنية في الكويت وفي البلاد العربية، ولذا فهي تمتلك ناصية التعبير بأداتين هما التعبير بالكلمة والرسم بالريشة، وأعني رسم الكلمات بتجسيدها وتلوينها بالفرشاة تلويناً يشي بالحالة النفسية للشخصيات، ولذا يمكن القول ان مجموعتها القصصية «رحيل النوافذ» اجتمع فيها القصة /اللوحة، ففيها الصور الشعرية المجسدة تجسيداً يجذب الفنان لنقلها إلى اللوحة وهذا ما فعلته الأديبة ثريا البقصمي فالمجموعة تشتمل على لوحات بريشة الكاتبة الفنانة مما زاد من قوة التأثير والتواصل بينها وبين المتلقي عن طريق السمع والبصر ولذا فمثل هذه الأعمال الإبداعية تحقق الهدف منها أكثر من آلاف المقالات الخطابية التي تدبج في المناسبات.

لقد لجأت الكاتبة إلى الأسلوب الشعري ولذا لم تقع القصص في المباشرة

والهتافية، ويتمثل ذلك في عنوان المجموعة «رحيل النوافذ» فهو عنوان رمزي يوحي بالكثير من المعاني.. تنوع في القصص استخدام الضمائر، فقد توزعت بين ضمير المتكلم وضمير الغائب، وهذا أعطى للكاتبة حرية الحركة بين الضميرين للكشف عن أعماق شخصياتها وأعطاها أيضاً حرية التدخل بالتعليق على الحدث بشاعرية دون إخلال بفنية القصة.

وتجربة الحرب الأرترية التي استمرت ثلاثين عاماً تجربة مريرة وقاسية، ولكن الإنسان الارتري ظل يقاوم طوال هذه المدة الطويلة دفاعاً عن أرضه.

يبدو ان الحرب كتبت فقط على دول العالم الثالث باعتبارها في عيون الغرب فئران تجارب لأسلحتهم الجديدة.

لقد عبر الأدباء الارتريون الذين يكتبون باللغة العربية عن أثر هذه الحرب نفسياً واقتصادياً، ومن هؤلاء الأدباء الشاعر أحمد عمر شيخ الذي كان له الفضل في تعريفنا بالأدب الأرتري، والشاعر عمر كجراي، والقاص ادريس سعيد الذي أصدر مجموعة قصصية بعنوان «عظام من خزف».

قصص «عظام من خزف» إفراز حرب تحريرية طويلة صور فيها الكاتب إدريس سعيد تفاصيل ما حدث في المعارك وعلى وجه التحديد اللحظات الأخيرة منها.

لم يقف الكاتب عند السرد الوصفي للمعارك العسكرية بأصوات البنادق والمدافع وازيز الطائرات، ولكنه بين العلاقة بين المناضلين فيما بينهم وتعاونهم والمواقف الإنسانية، كما كشف عما يصاحب الحروب دائماً من آثار سلبية اجتماعياً ونفسياً في المجتمع الارتري، من ضعف بعض النساء ومحاولاتهن الفرار من وجه العدو مما يجعلهن فريسة للسماسرة الذين يبتزون أموالهم وأعراضهم.

وفي الحرب تتكشف النفس الإنسانية على حقيقتها بما فيها من ضعف وقوة فتقدم صورة واقعية مشرفة للمناضلين رجالاً ونساء، الذين ضحوا بأرواحهم فداء للوطن، وسطروا بدمائم ملحمة التحرير، وهذه الصورة الواقعية للحرب نجدها في جميع قصص المجموعة.

فـ «اري ناتي» في قصة «حقل بين حدي سيف» يكتب رسالة لحبيبته بين فيها حياته في الخندق: «ما أجمل الحياة في الخنادق وما أمرها فهي جميلة مع هؤلاء الفتية وهي مرة مع القذائف والأمطار والبرد والجوع، القذائف تتساقط والأمطار تتساقط، والبرد أيضاً يتساقط طوال الليالي، ومع ذلك فإن ناموس الحياة هنا يختلف عن الحياة الرتيبة التي اعتدناها كم كنت أتمنى ان أراك مع هؤلاء البشر، فالبشر هنا سواسية، ليس هناك مهنة خاصة للمرأة كما هو عند جيراننا (ص ٧٣) هكذا الحرب ينصهر الكل في بوتقتها، فيصبح الكل واحداً رجالاً ونساء، لأن الأمر أمر حياة أو موت فلابد ان يتعاون الجميع في محنتهم؛ ثم يتحدث «أري ناتي» عن حلمه في حياة مستقرة في ظل الحرية والسلام «اتذكرين يا جماتي» عندما قلت لك لا حياة ولا سعادة بدون سلام. لا أعتقد أنك تذكرين هذا الكلام لأنك كنت تنوحين وتتمرغين على التراب من لوعة الفراق كان هذا منذ ثلاث سنوات عندما عزمت على حمل السلاح مع أي قوة تجنبنا للمهانة.. عندما تنتهي الحرب وهي لا محالة ستنتهي عن قريب، سنتزوج ونعيش في الحياة لا تعكرها الشفقة وسرقة الماشية وعساكر الاستعمار الذين يهشمون جماجم الرجال من أجل الحصول على مغراف الحليب المروب أو على كأس من الخمر» (ص ٧٣).

فالكاتب يجسد في اري ناتي حلم الشباب الارتريين في المستقبل، فالحرب بالنسبة لهم طريق إلى حياة جديدة.. من نارها يثبت الأمل في حياة حرة كريمة يترعرع فيها الحب.

وفي قصة «عظام من خزف» يبرز الكاتب مشاركة المرأة الارترية في النضال «سارة» تصمد وحيدة لصد هجوم إحدى الطائرات وتقتل أحد الخونة، ويرسم الكاتب هذا الموقف تفصيلياً. حلق سرب من الطائرات على علو منخفض ممطراً الأرض برشاشات الفكرز والقنابل الحارقة احرقت البساتين وتحولت الأكواخ إلى رماد هناك ترامت جثث القرويين مشوهة أمام الخرائب وشويت الماشية والخراف في حظائرها، صوبت سارة بندقيتها إلى الطائرات الصغيرة التي بدت كأسراب الطيور، لكن اصبعها تهدل ولم يقو على ضغط الزناد، أطل الطيار برأسه من الشباك، قهقه بشماتة استبدلت خزينة أخرى فتلوى الزناد كما لو انه افتقد ياياته، جثث رفاقها التي كانت متناثرة على أطراف المزارع، كان ابراهام يئن، حملته على ظهرها، لكنه فارق الحياة بعد لحظات، مددته، وجلست بالقرب منه قلبت رأسه علها تجد خيطاً واهياً من الحياة، وظلت تقلبه، لم تصدق، وكيف لها ان تصدق (ص ٥٣).

ويحاصرها أحد الخونة، واجهته بشجاعة وقتلته ليس لك مفر استسلمي لا تغامري بحياتك عبثاً هذه التلال مليئة بالجيوش، وقف وراء ظهرها، رجل ضخم الجثة تنطق ملامحه بالغلاظة والبله، وبسرعة المغاوير ادارت إليه وجهها وركزت عليه ناظريها وشرر الغضب يتطاير منها (ص ٥٣).

رفضت سارة الاستسلام، وواجهت الخائن بسلاحها افرغت في صدره الخزينة فحملته قوة الرصاص بعيداً متناثراً قطعة قطعة (ص ٥٣).

الطبيعة هنا تسري في وجدان الكاتب فهي لها حضور حي في جميع القصص حضور نابض بالحياة يصفها الكاتب بأسلوب محبب لما تحدثه الحرب للطبيعة من تشويه.. انه عشق وغرام بالطبيعة.. ويتجسد هذا العشق في أسلوب الكاتب النابض بالحرارة المضمخ بالحب وفي رشاقة الفاظة، فجاء وصفه للطبيعة لوحات فنية تحتاج لريشة الفنان، ففي قصة «عشق الرصاص»

يقول: «كانت السماء كئيبة وبدت بقعها التي ظهرت من خلال الغصون كما لو انها ستهوي على العباد. القردة التي تحرس السماء ليلاً خوفاً من تساقط النجوم على رؤوسها لم تنم قريرة العين وسقف السماء ينزلق ليصل قمم الأشجار العالية، قصور القردة المفضلة في الصيف لكنها عندما يحل الشتاء تقترب السماء يتساقط الرذاذ كدموع عانس، تنزوي قطعان القردة تحت اقبية الصخور الكبيرة التي هي اوكارها الشتائية ومن هناك تطلق الصيحات كما لو أنها تشمت بأبناء آدم الذين يجرون وراء الحرية والأمان إلى أبد الدهر» (ص ٢٧).

وفي قصة «وداعاً أيها الخندق» تقرأ هذه اللوحة وصورة حية للإنسان والطبيعة وقت انفجار قذيفة «أيها الرفاق احتموا بالملاجىء. دوى بعضها (القذائف) ما انغرزت على الأرض بعد وميض برقي خاطف، اما الأحجار التي أحضرت لبناء خنادق جديدة فقد تحولت إلى جير واستقر بعض شظاياها على أعتاب الخنادق، صرخت العصافير بمرارة تقافزت وقد تهيضت اجنحتها، ما لبث ان عادت إلى الأعشاب المحترقة تترنح مؤكدة عنادها الأبدي، منذ سنوات خلت شدت اسراب من كل أجناس وقبائل الطيور رحالها إلى كل أرض الله وسمائه وهي تنشد زغاريد وداعية حزينة، وعلى اجنحتها ارتسمت مأساة الهجرة. اما اناشيدها الشجية هذه التي لحنت في درب اللجوء أدانت كل شيء في هذا الكوكب، لعنت من صنع الحرب وسفهت من اخترع المدفع وأحرق الغابات وفي درب العرية تآخت وتآزرت» (ص ١٤).
وأسلوب القصص شاعري ويبدو هذا واضحاً في مقدمات القصص، وفي اللوحات التي يصف فيها الكاتب الطبيعة أي انه يمكن القول ان الكاتب اتبع الواقعية الشعرية، التي ترتفع بجفاف الأسلوب الواقعي وما فيه من مباشرة تفرضها آنية اللحظة بما فيها من حرارة وسخونة.. ومزاوجة الكاتب بين

الطبيعة والواقع أكسب المواقف التي وصفها نبضاً وحيوية.

وفي بعض القصص يبدو واضحاً تدخل الكاتب بالتعليق على بعض المواقف مما أحدث خدشاً في نسيج القصة كما في قصة «حقل بين حدي السيف» الرجل يكون ذليلاً عندما يحب الحياة، قديماً تعامل أجدادنا مع الحياة كما لو انها قدر مفروض، فكانوا لا يخشون شيئاً، اما نحن فقد بلغنا حدا نركع فيه لمن يعتقد انهم يمنحون الحياة ويمنعون الموت (ص ٦٢).

وفي قصة «عظام من خزف» يقول «ما أعتى امبراطورية الليل فهي متسلطة ككل الامبراطوريات البشرية لكنها تختلف في ان جيوشها لا تتهاون في أداء مهامها المتمثلة في التنكيل بأبناء النهار الذين يتحولون إلى حملان وديعة أمام جبروتها، وككل المؤسسات الفاسدة للامبراطوريات الظالمة، يمكن للإنسان ان يدفع ثمن ما تعتقده انتهاكاً لحرمات أمنها طالما تشاطره العيش في هذه البسيطة» (ص ٤٥).

ويغلب في القصص استخدام الجمل الفعلية وهذا يخدم المعنى لأنها تستكمل عناصرها فيعطي للقارىء معنى متكاملاً لا يترك له مجالاً للتساؤل، وتبرز الجمل الاسمية في المواقف الانفعالية فتأتي الجمل قصيرة متتابعة، بعض القصص بها أخطاء، نحوية وربما تكون من عدم دقة المراجعة. الكاتب إدريس سعيد في مجموعته القصصية «عظام من خزف» يقدم نموذجاً لأدب الحرب الذي اختلط فيها صوت الحرب مع صوت الإنسان المتطلع دائماً إلى حقه في حياة كريمة، فاهتم الكاتب في قصصه بعلاقات الإنسان بأخيه الإنسان خصوصاً في وقت الأزمة، ويبين انه في النهاية ينتصر الإنسان بإصراره وحبه للحياة.

سيظل الأدب هو المرآة الحقيقية التي لا تعكس صورة الإنسان الخارجية فقط بل تعكس أحاسيسه ومشاعره التي تكشف أنه إنسان حقيقي.

القصـــة في الانتفـاضـــة

(١) تمهـــيد:

الفعل النضالي حرباً كان أم انتفاضة شعبية أم معركة محدودة في حاجة شديدة للكلمة لأنها فعل مقاوم تحريضي لا غنى عنها لمواكبة الحدث في حينه، لشحذ الهمم، وإشعال الوجدان الشعبي، ولأنها أيضاً وثيقة هامة للتاريخ، لهذا لا يمكن الاستغناء عن الإبداع في الحروب، كما يرى بعض الأدباء انه من الأفضل صمت المبدعين لأن الصمت أفضل مما سيكتبونه لأنه سيكون ضعيفاً فنياً ولن يكون على مستوى الحدث. ومن أصحاب هذا الرأي الدكتور نبيل الشريف الذي يرى أن هناك مفاهيم خاطئة حول ما يراه بعض المبدعين بضرورة المشاركة ليواكبوا الحدث رغم انه لا داعي له لأن «إبداعهم سواء أكان شعراً أو قصة أقل بكثير مما ينبغي من حيث المستوى. ولم يكن غريباً ان يقدم بعض هؤلاء لقصائدهم وأعمالهم الأدبية باعترافهم انهم أنفسهم يعتقدون ان هذه الأعمال ليست مكتملة من الناحية الفنية، وعذرهم هو انهم يجب ان

يسهموا على حد تعبيرهم في الانتفاضة، وما علم هؤلاء ان مساهمتهم المثلى في مثل هذه الحال تكمن في صمتهم»[١٣].

ويرى محمد المشايخ الرأي نفسه مع بعض الأدباء في الأرض المحتلة ان مسألة تمثل القصة والرواية في الداخل للانتفاضة تحتاج إلى وقت تختمر فيه التجربة ليتمكن الكاتب من التعبير عنها فنياً. «فالانتفاضة ماتزال مستمرة ومن الصعب على كاتب القصة أو الرواية ان يتصدى للكتابة عن حدث لم يكتمل بعد وهو مع ذلك يعيشه في كل لحظة، وإذا فعل ذلك فمن المرجح انه سيقع في خطأ المباشرة التي تفرضها ردة الفعل، وانه ثمة أشكال أدبية أخرى أقدر على التجاوب مع الانتفاضة من القصة والرواية وفي مقدمتها الشعر الذي يحتل الآن مكاناً بارزاً في التعبير عن روح الانتفاضة، من هنا رأينا قصة الانتفاضة تعتمد على الشعر»[١٤].

والدكتور عبدالكريم الأشتر يرى أيضاً الرأي نفسه، «لأن مثل الأدب الروائي الملتزم الذي يكتب في مثل هذه الأحوال التي تحتدم فيها المشاعر هذا الاحتدام، تتهدده جملة من الأفكار، لعل أقربها إليه خطر المباشرة، وهو ان يلقي الكاتب ظله عليه، ويحرك الأحداث والشخوص كما تتحرك الدمى بنوابض مصطنعة، فلا تعود الحركة تفيض عن ذات الحدث ومن داخله وداخل الشخصيات المتفاعلة معه، وإنما تدفع الشخصيات دفعاً فتبدو مسيرة كالقاطرة البكماء.. ومعنى ذلك القضاء على ديناميــة الحدث وإرادة الشخصيات وبالتالي طمس مظاهر الحياة في العمل الروائي الملتزم. وخط الخطابية والهتاف وجهارة النبرة الدعائية التي تقضي على موضوعية الحدث وتصيب القارىء ببرود فعل قاسية ينهار معها العمل كله في نفسه ويفقد كيانه الذاتي وشخصيته المستقلة، ويصبح حجراً من قلاع الكاتب يصيب به من يقبل به»[١٥].

ويتفق السيد الوكيل أيضاً على الرأي نفسه، لأن أدب الحرب الجيد هو الذي يكتب بعد انجلاء الحقائق «يسجل أرشيف أدب الحرب ان أجود الأعمال كتبت بعد أن انجلت حقائق أعلى من تلك المعاشة واليومية. ان جمال تلك الأعمال يكمن في كون الجمال هو الحقيقة. ليس بالسرد التسجيلي النمطي بل التسجيل من أجل المعايشة»(١٦) .

ولنا على هذا الرأي ملاحظتان:

الأولى: تعميم الحكم بالضعف الفني على كل إبداع المناسبات.

الثانية: تخصيص الشعر دون القصة القصيرة والرواية في المشاركة في المناسبات صحيح أن الإبداع الأدبي المواكب للحدث فيه ضعف فني، ولكن ليس جميعه، لأن فيه الجيد والضعيف، ليس في القصة القصيرة والرواية بل في الشعر أيضاً، خصوصاً وأن أدواته تساعد على الجوهرية والتقريرية. والأمر يرجع أولاً وأخيراً إلى قدرة الأديب الفنية.

وشيء آخر، إن مثل هذا الإبداع يتغاضى المبدع فيه عن شيء من المباشرة، لاهتمامه المبدع بالتسجيلية الفوتوغرافية التي تفرضها حرارة اللحظة، وكذلك شيء من التقريرية، لان هذا الإبداع في كل الأحوال يعتبر وثيقة تاريخية تكتسب أهميتها من مواكبتها للحدث في حينه، وهذا له قيمة كبيرة عند الدارسين والباحثين.

لهذا كان تعميم الحكم برفض الإبداع المواكب للحدث رأياً يحتاج إلى إعادة نظر.

أما تحديد الشعر فقط دون القصة القصيرة والرواية لمواكبة الحدث لسرعة استجابته الانفعالية، فنرى انه الآن بعد ان حققت القصة القصيرة

تقدماً كبيراً على يد القاصين وصل إلى حد وجود القصة القصيرة جداً القريبة من الشعر، من ناحية التركيز والشاعرية، تستطيع القصة القصيرة بنوعيها مواكبة الحدث في حينه مثل الشعر تماماً.

أما الرواية فنحن معهم في انها تحتاج إلى وقت كاف لتخرج إلى الوجود. وأعتقد ان لنا في الأحداث الهامة التي مرت بالوطن العربي: هزيمة ١٩٦٧م، انتصار أكتوبر، انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، غزو العراق للكويت، الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م، والانتفاضة الثانية سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٠م، خير مثال على صدق ما نقول، إذ لولا وجود الإبداع الأدبي المواكب لهذه الأحداث بأجناسه المختلفة لما وجد الدارسون مرجعاً حياً يرجعون إليه لدراسة هذه الأحداث الهامة.

إن تاريخنا الأدبي حافل بالإبداع الأدبي المواكب للحدث، لأن العلاقة بين الكلمة والنضال علاقة تلازمية، لا غنى لكل منهما عن الآخر، ويرجع هذا إلى تقدير الكلمة في تكوين الوجدان الشعبي، وبث الحماسة، واستثارة القيم الدينية والوطنية المحفزة على النضال.

(٢) الكلمة المقاومة :

إن تاريخ البشرية يبين مدى حاجة الإنسان في صراعه مع الحياة إلى الفنون لأن «الفنون التي ابتدعها الإنسان من جانبه، ما كانت إلا لبث روح المقاومة في صراعه مع القوى الأخرى التي تهدده، وتعرض كيانه للخطر.. ما كانت النار، الأعاصير، الحيوانات المفترسة، الفياضانات.. إلخ إلا قوى شريرة أو حتى نافعة، لكنها قادرة، ومهلكة، فلجأ إلى المقاومة السلبية.. وظهرت العبادات والطقوس العقائدية، وعرف التمائم والقرابين.. وعرف الفن»[(١٧)].

ويبين أيضاً الدكتور محسن خضر أهمية الكلمة في تدعيم إرهاصات الإحياء القومي، فالثقافة لها «رسالتها الحية وفعلها الإنساني الخلاق في مواجهة مواقف الإنكار، وتصحيح أخطاء السياسة، والكشف عن المرتكزات الموضوعية في ثقافة الأمة، وتوجيه سهام النقد إلى الجذور العفنة تحت التربة، وفضح السلبيات والقبح والفساد»[١٨].

وللثقافة دور هام في حياة الإنسان فهي تشد من عزمه، لمواجهة التحدي، وأهميتها تزداد في أوقات الانكسار والتردي على حد قول الدكتور محسن خضر «إن ثقافة المقاومة مطالبة بالوقوف في وجه صيحات الهزيمة كلها ومنظري التكيف، ودعاة الهزيمة بحجة المسايرة والمواءمة والأمر الواقع»[١٩].

وقد بين الرسوال الكريم ـ ﷺ ـ أثر الكلمة في الكفار: «والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النَّبلِ» وقال الرسول أيضاً لحسان بن ثابت الحديث التالي:

روت السيدة عائشة: قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

«اهجُ المشركين فإنه أشد عليهم من رشق النبل» صدق رسول الله.

النماذج التي أتناولها بالدراسة والتحليل، هي نماذج قصصية كتبها كتاب فلسطينيون في الانتفاضة الأولى ونشرت في صحيفة الاتحاد الحيفاوية، أهداها إليّ مشكوراً الصديق الفاضل الأستاذ محمد المشايخ، فاحتفظت بها حتى حانت لحظة إعداد كتاب عن أدب الانتفاضة.

في قصة «الزمن الجديد»[٢٠] لنبيل عوده يبين الكاتب فيها الفرق بين جيلين: الجيل الجديد، والجيل القديم، فالأول مشلول الإرادة، عاجز عن التفكير السليم، سلبي، أما الثاني فثوري، إيجابي، لا يعرف الخوف، فالشاب «سليم» يفجر المقاومة بالحجارة في قريته، وأصبح رمزاً بطولياً لصديقه

«وليد»، تعلم منه حب الأرض والتضحية من أجلها، لأنه دفاع عن شرفه وأهله، «كان يحلم بزمن مختلف يخلص الإنسان من غربته، ينقذه من وحشته، زمن يعطي للثمر طعمه الحقيقي، وللكلمة وقعها الصحيح وللحب معناه الإنساني الأصيل فيه تنتهي المعاناة وتمتد السعادة. يتضاءل القهر وتفيض النشوة»[٢١] غمرت «وليد» السعادة لقيامه بأول عملية يكلفه بها «سليم» ليحكي لأحفاده عن أعماله البطولية، عن زمنه الذي لا يفهم بالكلام بل يفهم بالحجر، يحاول وليد توعية أهل القرية، ولكن القرية تنقسم في رأيها بين كبار السن السلبيين الذين شلهم الخوف عن التفكير، يشن اليهود هجوماً على القرية، يقوم الشباب بالتصدي لهم بالحجارة، والصبايا بالماء لإبطال مفعول القنابل، ويستشهد «سليم» ويصبح رمزاً للمقاومة، يسري روحه في الشباب، وفي نهاية القصة يقول «وليد» «سليم لم يمت، سليم معنا للأبد. سليم يقول لكم لا تصدقوا انه يموت. سليم يقول انتبهوا.. ينزلون من الطائرات.. سليم يقول لكم اصمدوا، واحموا كل البلد.. سليم يحبكم وينتظر ان يسمع أخباركم المشرفة. سليم معكم في كل مكان. سليم يوصيكم بان تدفنوه في تراب وطنه المحرر. سليم لا يموت.. لا يموت.. لا يموت.. وانطلق يجري باحثاً عن مجموعة أخرى»[٢٢].

أما محمد نفاع في قصته «الجنرال»[٢٣] فيصور بشاعة اليهود ووحشيتهم في تعاملهم مع الشعب الفلسطيني، فالجنرال يأمر بجمع الأطفال لقتلهم أمام أمهاتهم اللاتي جئن يطالبن بالإفراج عن أزواجهن متحدين الأخطار، غير مبالين بالموت، رغم المنشورات المحذرة من أي تجمع، ويصف الكاتب دور المرأة الفلسطينية في النضال والدفاع عن أرضها، «لاحظ الحراس طابوراً صامتاً متقدماً وافر العدد من النساء»:

- «وين ـ أشهر الحارس حربته في وجه الأولى وقد برز ثدياها الرخوان

المسودان حول الحلمتين في هالة ضيقة كفنجان صيني مترع بقهوة مع حليب، مما ذكره بكلبته وأثدائها الرخوة المهدلة. وقبل ان يتمكن من الاستفسار اندفعن بصخب وطيش غاضب إلى ساحة المركز معهن أطفال رضع في الأقمطة لهم عيون داكنة ضيقة كزهرات تتفتح في الغسق، وكل طفل ملفوف هو الآخر على شكل اسطوانة

- «قتلتم رجالنا وأزواجنا

- «سجنتموهم لا نعرف أين في سجونكم ذائعة الصيت. أطفالنا هنا حتى تطلقوا سراح الرجال المعيلين»(٢٤).

فالكاتب يبين في هذا الوصف التالي:

١- وحشية اليهود في اغتيالهم للأطفال.

٢- دناءة اليهودي الذي يشبه النسوة في هزلهن بكلبته.

٣- شجاعة المرأة الفلسطينية فهي تشارك في النضال متحدية الموت. ولم تفر من أمام الدبابات التي أمرها الجنرال بدهسهن، وصعق الجندي من هذا الأمر البشع «شهق الجندي الأنمش ومط بوزه ورقبته الحمراء مستديراً تاركاً المكان وهو يتخيل الجنزير الفولاذي واللحم الباكي، يحدث الجندي نفسه: «هل يحدث هذا يا ابن الـ..»(٢٥) لقد تذكر في تلك اللحظة بيته وطفله ابن الشهور الثلاثة.

وإبراز هذه اللحظة الإنسانية عند الجندي اليهودي، لفتة شجاعة من الكاتب، وان كان هذا الصوت ضعيفاً جداً لا قيمة له أمام ما يرتكبه اليهود من جرائم بشعة كل يوم في الأطفال والرجال والنساء الفلسطينيين. ان الحجارة أكثر حناناً ورحمة من قلوب اليهود الصلدة القاسية، وصدق الله العظيم حيث وصف مثل هذه القلوب بأنها أشد من الحجارة «إن من الحجارة

لما يتفجر منه الأنهار»[٢٦]، ولنقرأ وصف الكاتب لمشهد مقتل الأطفال «ضربت هبات الريح الساخنة آذان الجنود ووجوههم ومع صدمات الريح أنصت الجنود الراكضون إلى طلقات النار.. واحدة، اثنتان، خمس، عشر طلقات صماء خرساء مكتومة بالتمام. بلا صدى وبلا ترجيع ومن الطبيعي ان تكون كذلك رأس الطفل الطري بشعره الحليبي الوبري الخفيف كفرسات قمح هشة رضيعة تلمس رحيق الأرض العذب لم يصمد أمام الرصاصات الساخنة. انثقبت عشر جماجم رخوة فاندلعت أحشاؤها. دماء ودماغ وكسرات عظام مغموسة بسائل أحمر. وخصلات شعر شفطتها النار. معسها الرصاص معساً. كبرت عيون الأطفال للحظة في محاجرها كزهرات اكتمل تفتحها: انفلتت نيران زاعقة مخيقة قصيرة ذات أنين وتريّ كالمواء المعذب.. وتوجعات عميقة مبحوحة ذابت للتو مصدومة وحركات قاصرة من الأجسام المدمجة»[٢٧] ويتباهى الجنرال بوحشيته لأن هذه الدماء ولحوم الضحايا ستتحول نجوماً كالشارات على كتفه، ويختم الكاتب القصة بحمل الريح للخليط من الدماء والبكاء «ظلت الريح تهب، وهي في طريقها إلى كل الجهات، تحمل معها هذا الخليط من الدخان والبكاء الأخير والحليب المقتول المسفوك إلى صدور الأمهات والعذارى في بقاع الأرض والمياه الآتية العابرة من هنا تصل إلى البحر الكبير.. إلى قلب الأرض.. الأرض الأم»[٢٨].

لقد استطاع الكاتب ان يستثير غضب المتلقي على وحشية اليهود اللاإنسانيين بالمشاهد التي قدمها في صور واقعية حية متحركة.

لقد اعتمد الكاتب على السرد الوصفي الشاعري مما أبعد القصة من الوقوع في المباشرة والتقريرية، وهذا سنراه في معظم القصص التي سنتحدث عنها، وهذا راجع إلى إدراك المبدعين للقيمة الفنية.

وفي قصة أخرى بعنوان «صباح بعد انحسار الغطاء»[٢٩] لسعيد نفاع يبرز

الكاتب دور المرأة الفلسطينية في النضال من أجل تحرير فلسطين، فنجد «صباح»بطلة القصة المتزوجة من هاشم المحكوم عليه بالسجن، لاشتراكه في مقاومة اليهود، كم تحمل العذاب والآلام في السجن، وزوجته صباح تتحمل آلام الحمل الأخيرة، وتسترجع ذكرياتها مع زوجها هاشم «أسندت صباح جسدها الثقيل بحركة سريعة أحست ألمها، فقط بعد ان استوت في الفراش، فأحاطت خاصرتيها بيدها ضاغطة متأوهة فالحمل الأول متعب، وقبل ان يتململ «هاشم» كانت الهراوات وأعقاب البنادق تتناوشه، لا تعرف صباح كيف انتصب بين تلك الأشباح، لم يتأوه، ولم يتكلم فالصمت أحياناً أكبر تحدٍّ، واقتيد بلباس النوم، لم يلتفت إلى «صباح» التي كانت جالسة مكانها تقاوم ألم ظهرها وخاصرتيها. ابتعد هدير السيارات، وعندها فقط أحست بالريح العادية قد ضربت جنبات البيت وجسدها. فتحاملت وقامت إلى الباب أغلقته واضعة خلفه كرسياً والتحفت الفراش»(٣٠). لقد صور الكاتب كيف ربط الألم بين الروحين هاشم وزوجته صباح، لتواصلهما وإحساس كل منهما بالآخر، وكيف تحمل الزوج آلام التعذيب وتحملت «صباح» آلام الحمل، وكيف صبر الاثنان وقاوما حتى النهاية. فصباح لم تتخل عن هاشم وهو في سجنه، تمسكت به ووقفت بجانبه تشد من أزره، كيف تنسى «هاشم» حبها الأول، لقد خطبت له وهو في السجن.. رمز الأمل، والحياة، رمز للفجر الآتي لا محالة.. ويصف الكاتب مشاعر «صباح» مستبطناً ما دار بخلدها «كل شيء غريب في حياتها «هل كان يجب ان تحب هاشم.. وهل كان يجب ان يجرها حبها إلى السجن وراءه. والأغرب.. خطبتها لهاشم وهو خلف القضبان، فتاة تخطب لسجين، ما الذي حدا بها؟ أهو الحب المراهق؟ أم هو الإيمان القوي بحتمية زواج السجن، وزوال السجان أمام إرادة الحياة؟ ألم تجهد نفسها يومها بالتفكير بكل هذا، والغريب ان تمر بخلدها هذه الأفكار اليوم بعد مضي كل هذه السنين»(٣١).

تعذب «صباح» تعذيباً شديداً، ويضربها الجنود اليهود، تصاب بركلة في بطنها، «كل ما تذكره اليوم ان زنار الألم اشتد وما كادت تطوق خاصرتيها بكفيها حتى تراءت لها رجل ترتفع لتصيب أسفل بطنها. وعندما فتحت عينيها الذبلتين، المحاطتين بهالتين تميلان إلى السواد. كان يلفها الأبيض من كل صوب. وألم شديد في بطنها تغلب على ألمها العادي. تحسسته في البدء ثم بصعوبة أسندت رأسها لترى بقعة كبيرة زرقاء داكنة سرعان ما تلاشت. وبعد أيام أفاقت على صراخ نضال وتحرير، وصوت حوامة عبر المذياع يخالطه صوت المذيع المعلن انها تحط على أرض لبنان»[٣٢].

والقصة رمز للتحدي واستمرار النضال حتى يتحقق النصر الكبير، وتعود أرض فلسطين الحبيبة، نلاحظ في القصة التكثيف، والسرد الوصفي الأدبي.

أما في قصة «اسحب تريح»[٣٣] لصبحي حمدان فبين الكاتب فيها استعداد الفلسطينيين للإضراب يوم ١٥ أيار (مايو)، وبطل هذه القصة بائع ترمس ويبيع أيضاً أوراق السحب، يدعو الله ان يبيع بضاعته كلها ليشارك في الإضراب غداً.. يعود إلى داره فوجد أهله حزانى، لأن اليهود أخذوا أخاه «عندما وصل الدار ودق الباب، ودخل صفعه الوجوم. وجو كئيب كان يخيم على من في الدار رأى بعض النسوة الجارات يتحلقن حول أمه. حدق ملياً في عينيها، ثم ألقى بورقة السحبة، كان لم يبق بها إلا رقمان يتعلقان في جانبها، جاء أخوه الأصغر وقال بلهجته المعهودة: أخذوا «جميل» اليوم. واغرورقت حينئذ عينا أمه وحضنته فبكى، وتساءل بعد ان هدأ قليلاً واستوعب ما حدث:

- أين أبي؟ ألم يعد أبي بعد؟»[٣٤].

وفي يوم الإضراب لم يتخل بائع الترمس عن القيام بدوره في مراقبة الطريق ليحذر الآخرين من الخطر «في صباح اليوم التالي ١٥ أيار (مايو) يوم

الإضـراب والمواجـهـة، كـان يقف عند ناحـية الشـارع الر ئيسي مـشـرفـاً على مفترق طريق حساس، مستكشفاً الأطراف البعيدة، والقريبة، ممسكاً بين أصابعه الغضة ورقة السحبة، محولاً عينيه بين الحين والحين صوب الشباب المتأهبين على حذر ليسمعوا نداءه العصفوري الحاد منذراً إياهم على أي خطر أو مناجاة، يتردد مموسقا في جنبات الشارع المقفر من السابلة، والقاصي والداني: اسحب تربح»[٣٥].

فبائع الترمس وورق السحب رمز لكل الفلسطينيين الذين يقدمون أرواحهم فداء للوطن، وقدم الكاتب صورة حية من الشارع الفلسطيني، والقصة مقسمة إلى فقرات، يرتبط بعضها ببعض ببائع الترمس، وتواصل الأحداث.

أما في قصة «طز.. قيد له»[٣٦] لفياض فياض، فيبرز الكاتب دور المسجد في النضال الوطني، وفي تقوية الإيمان لدى الجماهير لتواصل النضال، فجموع الجماهير تتحرك من ساحة المسجد إثر النداء «الله أكبر.. الله أكبر.. يا مستوطن بره.. ارحل عن المرة» ويشتعل الوجدان العربي، وتنطلق الجماهير في الشوارع تواجه رصاص اليهود بالحجارة، والزجاجات الفارغة، وينطلق إبراهيم وسط الجموع ويشعل النار في السيارات، ويسقط شهيداً برصاص اليهود «سقط إبراهيم على أرض المعركة، انطلقت من عينيه شزرات أضاءت ظلمة الليل البهيم لترتسم في السماء نجوم وكواكب وضاءة. ظل مستلقياً على ظهره وهو يغط في سبات عميق. نام وهو يحدق في سماء المدينة التي ولد وحيا على ثراها الطهور، لم يشأ ان يغمض عينيه.. أقبل الشباب من كل الجهات. حملوا إبراهيم على الأكف. طافوا به شوارع المدينة ليؤكدوا للملأ انه موجود في شوارع وأزقة المدينة كلها.. وهم يرددون بالروح بالدم نحميك يا فلسطين. بالروح بالدم نفديك يا شهيد»[٣٧].

ولم تهدأ الثورة الشعبية ويخرج بطل آخر «محمود» يقود المظاهرات ضد

حلف بغداد وغيره من الأحلاف الغربية، دليل على اتخاذ المقاومة مساراً جديداً تبعاً لمستجدات الشعارات السياسية التي تطرح في كل مرحلة، وقال «لكل زمان دولة ورجال.. الحمد لله.. ان المسيرة لم تتوقف وكل جيل يأتي أقوى ممن سبقه.. إذن الدنيا بخير والأمور تسير إلى الأمام»(٣٨).

يبين الكاتب في القصة ان النضال الفلسطيني لن ينقطع، ولكنه مستمر جيلاً بعد جيل حتى تحرر الأرض، ويشرق عليها نور الحرية والحياة الجديدة.

ويختم الكاتب القصة بالبطل الثاني: محمود «يسير في الشارع يتذكر الماضي وأسماء الشوارع التي تغيرت «نذكر هذا التزوير لتاريخنا الماضي لتشويه آمال الأجيال القادمة.. أخذ يردد على مسمع من زوجته التي أسرعت لفتح الباب وهي تسأل عما حدث فيقول: «في المستشفيات تنمو الطحالب وتتكاثر كل الفطريات والجراثيم.. إنها تنمو بنفس الطريقة وينتظرها نفس المصير عندما تسطع شمس الصيف الحارقة.. لقد نجحوا بعض الشيء إلى حين لكن هيهات ان يستطيعوا منع جريان النهر لينضم لأمواج البحر الهادر. قال هذه الكلمات وهو لا يكاد يستطيع التقاط أنفاسه بسبب تلوث الجو من قنابل الغاز»(٣٩).

فالكاتب هنا كشف عن قضية خطيرة يجب ان نتنبه إليها وهي محاولات تزييف التاريخ الفلسطيني، وسرقة التراث الفلسطيني ونسبته إلي اليهود، لإنهم بذلك يريدون محو الشخصية الفلسطينية، وقد أشار الكاتب إلى هذه المحاولات في الفقرة السابقة، من تغيير لمعالم المدن، وتغيير أسماء الشوارع.. فيجب على المؤسسات الثقافية الفلسطينية والعربية عامة اتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة هذه المحاولات الخطيرة بسرعة وحزم.

اما نبيل عودة في قصته «الحاجز»(٤٠) فيبين التالي:

١- مواجهة أطفال الحجارة رصاص العدو اليهودي بشجاعة وجرأة.

٢- بيان الجانب الإنساني والوفاء عند العربي، والتزامه بواجبه الإنساني لأي إنسان حتى ولو كان عدواً له مثل اليهود.

٣- بيان الموقف العربي تجاه أحداث القضية الفلسطينية.

٤- كشف نفسية اليهود الخسيسة وما جبلت عليه من غدر وعدم الوفاء بعهد ورد جميل.

الطبيب أحمد يسرع إلى المستشفى فور استدعائه، فتحدثه نفسه «الأحداث في القطاع انفجرت من جديد، عدد مجهول من القتلى وعشرات الجرحى.. هذا ما فهمه أحمد من المكالمة التليفونية، حيث طلبوه في المستشفى للمساعدة.. وهذا الطلب بحد ذاته يشير إلى العدد الكبير من الإصابات الصعبة»(٤١).

ويتساءل أحمد مستنكراً «هل تكون عملية تخليص شعب من معاناته بقتله، بتصفيته جسدياً.. قد تبدو هذه الفكرة إنسانية في هذا الزمن الرديء»(٤٢).. ويستطرد أحمد معلقاً على سلبية الدول العربية، وعدم تحركها لاتخاذ خطوات إيجابية تساند هذه الانتفاضة الأولى الشعبية «الدول العربية لا تحرك ساكناً لفضح الواقع المأساوي لشعب صار القتل حادثاً يومياً في حياته.. حتى رد فعل بسيط معدوم مع أنهم يدعون ان فلسطين قضيتهم الأولى»(٤٣).

ويؤكد الكاتب ان النضال الفلسطيني لن يتوقف رغم المثبطات العربية والدولية، وسيتوارث النضال التحريري الأجيال القادمة.

وفي طريق أحمد إلى المستشفى، وعند حاجز التفتيش، يطلب منه الجندي اليهودي علاج أحد الضباط المصابين عندما عرف انه طبيب.

ويفجر الكاتب الصراع النفسي لدى أحمد.. هل يقبل أم يرفض.. يأتيه

صوت الجندي:

- «الوقت لا يسمح بالجدال.. أسعفه وبعد ذلك نرى.

- «هل كانوا يسعفونني لو كنت أنا المصاب؟

- «أنت طبيب.. والطب مهنة إنسانية

- «ولكنني فلسطيني.. والحديث هنا عن العدو.. وليس مجرد عدو.. أربعون سنة ونحن نعاني مرارة الضياع والتشرد.. ومازلنا..

- «كفى كفى، سنعالج قضية فلسطين فيما بعد انه ينزف ولا تنسى انه بشر مثلنا.. إنسان.

- «إنسان كم يضحكني هذا الوصف

- «الوقت لا يسمح للسخرية.. أنقذ الإنسان الذي فيه

- «لو كان فيه بقية إنسان.. لرفض الاحتلال، لرفض ان يمارس العنف ضد شعب مشرد أعزل.

- «وهل ذنبنا أننا نطالب بحقنا - «لا تفقد إنسانيتك.. تذكر ان قوتنا في إنسانيتنا

- «أعرف، ولكن لا أستطيع ان أنسى انه عدو شرس.. لا يرحمنا.. وما يحدث الآن يثبت ما أقول.

- «أنت طبيب وهو مجرد جندي مأمور

- «بأي حق أساعد جندياً عدواً، ليقف مجدداً يوجه سلاحه نحو شعبي».

- أنت طبيب وهو مجرد جندي مأمور»(٤٤).

ويتغلب الجانب الإنساني على الطبيب «أحمد»، ويعالج الضابط، وتمر الأيام وتستمر الأحداث، ويخرج «أحمد» وزوجته وابنه للنزهة، ويتعرض

وأسـرته للتـفـتـيش، وبعـد تفـتـيش سـريع، يسـمـح له وأسـرته بالعـبـور، ثم قـام الضابط الذي عالجـه، وقال أحمد لزوجتـه: إنه يرد الجميل لقاء معالجته له.. وكانت المفاجأة ان أطلق الضابط الرصاص على زوجة أحمد وابنه.. وهكذا رد الضابط الجميل للطبيب الذي عالجه.

لقـد أدار الكاتب المونولوج بصـورة أبرزت الصـراع النفـسي الذي عـاناه الطبـيب حتى يصل إلى قـرار معـالجة الضـابط اليـهـودي، صـراع بين واجبـه كطبـيب واجبـه ان يعـالج أي إنسـان حتى ولو كـان عدوه، وبين واجبـه الوطني الذي يفرض عليه ان يقتل الضابط بدلاً من ان يعالجه. كما وضع «أحمد» في موقف حرج بين الجنود اليهود، أي بين الحياة بمعالجته للضـابط، وبين الموت إذا رفض معـالجته، وان كـان هـذا سـببـاً من الأسـبـاب التي يمكن ان يؤثر في قـرار «أحمـد» إلا أني أسـتـبـعـد ان «أحـمـد» تأثر بهـذا السـبـب، وأرجح انه لم يخطر على باله موته أو حياته، لقد اتخذ قراره بوازع إنساني.

لقد نجح الكاتب في إبراز الفرق بين أخلاق العربي وأخلاق اليهودي، بذكر هذين الموقفين، موقف «أحمد» الطبيب الإنساني، وموقف الضابط اليهودي الغادر وهو رمـز لليهود عامة الذين لا يوفون بعهد ولا يحتـرمون الجميل. في طبعهم الغدر والخيانة.

ومما يؤكد رأينا في تصـرف «أحمد» ما قام به بعد قتل زوجته وابنه، قـام بعـمليـة انتـحارية فدائيـة اتجه إلى الحـاجز بسـيارته لينتقم لزوجتـه وابنه، ويصـف الكاتب حـالتـه النفسية «وينطلق نحو الحاجـز.. والألم يكاد يمزقـه من الداخل.. والضـابط الكاوبوي أمامـه.. صدى الأصوات تتكرر في ذهنه.. سـاق في حذاء ممزق.. طفله يضحك.. ومع ضحكاته يتدفق الدم.. تعابير عقيمة تتصارع في ذهنه.. زوجتـه لاتزال تبتسم.. وكأنما تقول له هذا مـا جنيت أنت عليّ.. يضـغط برجلـه على دواسـة الوقـود.. حـتى يجـعلهـا تلامس أرضـيـة

السيارة.. يداه تتسمران فوق المقود.. ونظراته تتمغنط فوق صلعة الضابط الكاوبوي الذي يلوك سجائره»[٤٥].

مزج الكاتب بين السرد الوصفي وبين الحوار الذي ينمي الصراع الدرامي، أولاً: بالحديث النفسي، وثانياً: بذكر المواقف المتضادة، لقد أثار الكاتب سؤالاً هاماً تفجر بصورة خاصة بعد غدر الضابط وعدم حفظه جميل «أحمد» بمعالجته، وهو هل كان من الواجب ان يعالج «أحمد» الضابط اليهودي خصوصاً والوضع أثناء الانتفاضة حالة حرب لها قوانينها الاستثنائية، ويظل السؤال حائراً هل كان يعالجه أم لا؟ القصة يشوبها نغمة سخرية من موقف الدول العربية السلبي تجاه الانتفاضة الأولى. ويجدر الإشارة إلى قصة أخرى تناولت موقف «أحمد» الطبيب، وهي قصة بعنوان «دماء»[٤٦] للكاتب العراقي محمود سعيد، كتبها عن الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، بطلها طبيب عجوز نشيط يقوم بواجبه لإنقاذ الجنود بالعلاج أو يبتر سيقانهم، ويساعده طبيب شاب يدعى «سعد» الذي يتأثر بمنظر الدماء، وقطع السيقان. لنقرأ وصف الكاتب له «ارتج علي سعد، كان شاباً قزماً بالنسبة للجراح. نحيفاً تلمع عيناه الصفراوان في رعب يكبحه إحساس بتوازن مصطنع، وقدّر ان أي آلة يمسك بها تسقطها أصابعه المرتعشة، لم يكن هناك أية قوة تستطيع كبت الرجفة في أعماقه، كل تلك الدماء على الأسرّة وفي السقف. وتحت الأرجل والأغطية والنقالات والملابس، والوجوه والأيدي، أنى يتلفت.. في كل مكان دماء، رائحة بشرية حادة تخترق عينيه.. خياشيمه، حاسة اللمس، يديه.. تنغرس في مسامات جلده، تخترق دماغه وأحاسيسه.. تحتل معدته الخاوية»[٤٧].

الجراح العجوز، يقوم بواجبه بإخلاص لإنقاذ الجرحى، رغم القصف خارج المستشفى، ورغم الأعداد الكبيرة الواردة من الجرحى.. يفاجأ الجراح العجوز بابنه بين الجرحى يحتضر، تذهله المفاجأة ولكنه يستمر في القيام بواجبه

لإنقاذ الجرحى، ويصف الكاتب مشاعر الجراح العجوز في هذه اللحظة «سمرت المفاجأة عيني الدكتور.. نقل نظراته بين المرضة والطبيب المستجد والعريف، جمدت الحيرة نظراته.. مشاعره، أفكاره.. توقف الزمن في القاعة برهة.. نظر إلى الإيراني.. إلى المنشار.. رفع عينيه نحو المر.. ارتعشت يمينه.. بدا لعيني الشاب انه فقد تركيزه.. أخيراً وضع المنشار على المنضدة»[٤٨].

كانت المفاجأة التي أسعدت الجراح العجوز ان الجريح ليس ابنه ولكنه شاب إيراني، ولم يتراجع عن علاجه، وقام بواجبه تجاهه.. يحتضر الشاب، وتواردت صور حياة الطفولة، أمسك الطبيب بيد الشاب، رأى فيه ابنه المشارك في الحرب، وظل ممسكاً بيده حتى لفظ أنفاسه «كانت حرارة الجندي شديدة. ابتسم إبتسامة عريضة، أغمض جفنيه فيما تدحرجت دمعتان على وجه الطبيب العجوز»[٤٩].

في هذه القصة يبين الكاتب ان المشاعر الإنسانية لا تعرف الاختيار، لأنها مشاعر تعلو فوق كل اعتبار تفرض على الطبيب أو أي إنسان ألا يقف موقفاً لا إنسانياً من إنسان يطلب الغوث والإنقاذ حتى ولو كان عدواً. والذي قوى هذه المشاعر الإنسانية عند الطبيب العجوز ان تخيل الشاب الإيراني شبه ابنه، وكأنه يريد ان يقول ان الشباب يزجون في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ولكن صاحب الناقة هم الزعماء الذين يشعلون تلك الحروب.

لقد وضع الكاتب محمود سعيد في قصته هذه البطل في نقطة الصراع، كما فعل نبيل عودة في قصته الحاجز، وغلب كلاهما الجانب الإنساني رغم ان حالة الحرب تجيز أي تصرف تجاه العدو. ولهذا أقدم نموذجاً ثالثاً قصة «الجندي الآخر»[٥٠] لعبدالستار خليف، لقد تصرف بطل القصة عكس تصرف بطلي القصتين السابقتين رغم أن الظروف واحدة فالبطل في حالة

حرب أيضاً، بل تضعه المصادفة مع عدوه اليهودي في خندق واحد يطلب منه إنقاذه ويرفض ان يعطيه الماء، ويتركه يموت.

الكاتب بدأ بنسج أحداث القصة نسجاً دقيقاً من خلال عرض المواقف التي يسترجعها البطل من رحلة ذكرياته، مع ذلك الجندي الذي يأتيه صوته من بعيد، وملامحه غير واضحة في الظلام، حاسباً انه جندي مصري، ثم يفاجئنا الكاتب بانه جندي يهودي جريح من المشاركين في المعركة الدائرة، طلب اليهودي ماء، رفض الجندي المصري ان يسقيه، وأفرغ زمزاميته، وكسر كوباً كان يضع فيه نباتاً أخضر وهو رمز للأمل «مددت يدي، لابد انه يعاني من الألم مثلما أعاني أنا، حاولت ان أقترب منه حتى يصله الماء. استقر نظري على النجمة السداسية، نجمة داود، تذكر فوراً أمه وزملاءه الشهداء بيد اليهود، فألقى بالزمزمية بعيداً «ذراعي الممدودة على كامل امتدادها، تحمل زمزمية المياه، أعدتها نحو صدري. بدأ الآخر يزحف ويقترب مني.. ربما لن أقوى على منعه أو الوقوف في وجهه. رفعت يدي عالياً وسكبت كل ما تبقى فيها على أرضية الخندق. وأحسست بارتياح. قال بحزن ويأس: كنت أريد الماء، قلت له دون خوف: أنت عشت في حارة اليهود، شربت مائي، أكلت خبزي وجئت الآن تقتلني. وطوّحت بالزمزمية الفارغة بعيداً، فاصطدمت بالجدار الخشن وأحدثت صوتاً وهي تتدحرج على الأرض، وصرخت في وجهه عندما اقترب مني أكثر: ماء النيل يجري في دمي، وفي عروقي، وليس لك، ليس لك»[٥١].

فبطل هذه القصة تصرف تصرفاً طبيعياً، فالاثنان في حالة حرب، وفي ميدان الحرب، أي ان الاثنين في مواجهة، سيقتل أحدهما الآخر، كما ان الكاتب قدم المبررات التي تثبت خيانة اليهود، فاليهودي كان يعيش في حارة اليهود بالإسكندرية، أكل عيش مصر، وشرب ماءها، والآن يقتل أبناءها، فالمنطق الطبيعي ألا يسعفه ويتركه يلفظ أنفاسه.

ونختم النماذج التي اخترناها بقصة «وتكون لنا راية»[٥٢] لنبيه قاسم، وفيها نرى البطل شاباً يؤمن بالمقاومة ضد اليهود لأنها الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، ويجب ان تكون الهدف الذي نسعى إليه جميعاً، انخرط في صفوف المقاومة بكل مشاعره دون تفكير «لم يسأل نفسه ولو لحظة، لماذا أنا هنا؟ فقد كان بكل إدراكه ومعرفته ومشاعره يرتبط بهذه المواقع التي يقاتل فيها، تماماً كما يدرك ويعرف ان قريته البعيدة في الجليل.. هي المكان الذي ولد فيه ويسكنه أهله.. وعرف فيه أول حب.. ويهتف ضد الاحتلال:

- «ليسقط الاحتلال.. بلادي.. بلادي.. الفاشية لن تمر»[٥٣].

ويشترك مع جماعته في الهجوم على العدو الذي يمطرهم بوابل من الرصاص، يرفض ان يستجيب لطلب زملائه بترك المكان حرصاً عليه، حين يتذكر حبيبته، ويتذكر كلماتها التي قالتها بعد استماعها إلى تصريحات ذلك الجنرال الذي وصف العرب بالصراصير.. ويرفض ان يترك مكانه لينتقم لأرضه وشرفه، ولكرامته وكرامة العرب الذين وصفهم الجنرال بالصراصير.

ونلمس في القصة نغمة سخرية من الوضع الذي يعيشونه، ومن موقف العرب من الانتفاضة الأولى.

فتداعى في خيال البطل وحبيبته أنهما صراصير فماذا يكون الحال؟ «وتخيلا معاً ملايين الملايين من هذه الصراصير وهي تحمل شاحنات لا عد لها توزعها على كل محطات العالم، وفي كل الموانىء تحقيقاً لرغبة وزير كبير وجد أن الحل الأمثل لتزايد السكان العرب ترحيلهم في شاحنات كبيرة» ويأمل البطل وحبيبته ان يهتم بهم العالم «قد يهتم بنا العالم يومها عندما يضايقهم وجودنا وتكاثرنا فيعملون على حل قضيتنا بإيجاد وطن مستقل لنا لا يقربنا فيه أحد.. وقد يتفق الجميع على اختراع سلاح فتاك يقضي على وجودنا في هذا العالم فيحلون بذلك القضية ويهدأ الجميع»[٥٤].

نلمس بوضوح سخرية الكاتب من الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون والعرب جميعاً، ويسخر سخرية حادة من الموقف العربي من القضية الفلسطينية، ولكن رغم هذا يرى الكاتب ان الانتفاضة هي الأمل الذي يطلع الفجر، وتفتح طريق المستقبل إلى النصر الأكيدعلى رصاص العدو، وصواريخ أمريكا، وسيعرفون أننا لسنا صراصير، وقد أبرز الكاتب هذا الأمل بانبعاث أصوات شباب الانتفاضة من التلفزيون تردد بقوة:

- بلادي.. بلادي.. الله أكبر.. ليسقط الاحتلال.. الفاشية لن تمر.

لقد تحقق بعد سنوات قليلة ما توقعه بطل القصة، فالأمل لا يموت، والأبطال لا يموتون، بل يتوالدون، لقد تفجرت الانتفاضة الثانية (سبتمبر/أكتوبر ٢٠٠٠م) أشد وأقوى وأعنف من الانتفاضة الأولى تنذر بريح صرصر عاتية تقتلع اليهود من جذورهم.

والتغير الحقيقي الذي يجب الإشارة إليه هو موقف الدول العربية جميعها الآن من الانتفاضة الثانية، لقد تغير تماماً عن موقفهم من الانتفاضة الأولى، لقد اتفقوا على كلمة سواء للوقوف جدياً وعملياً بجانب الإخوة الفلسطينيين بكل الإمكانات حتى النصر.

لم أشأ ان أورد نماذج من الإبداع الأدبي في الانتفاضة الثانية لأن ما نشر منه مازال قليلاً، ولم يكتمل بعد، مثل الإبداع في الانتفاضة الأولى الذي اعتمدت عليه في هذه الدراسة.

(٣) الجوانب الفنية:

مما سبق نخرج بالملاحظات التالية:

١- الخطاب الأدبي الفلسطيني والعربي عامة الذي تناول القضية

الفلسطينية تغير من خطاب بكائي استسلامي تشاؤمي شاع في الستينات قبل انطلاق العمل العسكري الفلسطيني ضد اليهود، وبعد هزيمة ١٩٦٧م إلى خطاب تحريضي متفائل مستبشر بالنصر، وقوي هذا الخطاب بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣م، وهجمات حزب الله في لبنان التي أرغمت إسرائيل على الانسحاب منها، والانتفاضتان الفلسطينيتان الأولى ١٩٨٧م، والثانية سبتمبر/أكتوبر ٢٠٠٠م، مما كان له أثر كبير في رفع الروح المعنوية لدى الجماهير العربية.

٢- انتفاضة أطفال الحجارة جاءت مفاجأة نزلت على رؤوس اليهود نزول الصاعقة لفشل محاولاتهم غسل عقولهم ليضمنوا ولاءهم، فكانوا القنبلة الموقوتة التي انفجرت الآن في الوقت المناسب لتحرقهم وتدمرهم.

٣- تجرؤ الكتاب في نقد موقف الدول العربية من الانتفاضة، وبيان سلبيتها، وكذلك مناقشة مدى أهمية بعض الأحداث الكبرى مثل حرب العراق وإيران التي استمرت سنوات طويلة، وغزو العراق للكويت وفائدة هذه الحروب التي دمرت الإنسان العربي.

❖ الجانب الفني:

❖ الشكل:

يتضح في قصص الحرب والانتفاضة الصراع الدرامي المتفجر في أعماق الشخصيات، صراع ثنائي بين متضادين، الخير والشر، الواجب والعاطفة، مثل قصة «الحاجز»، و «دماء»، و «الجندي الآخر». وقد اتخذت القصص أشكالاً مختلفة منها الشكل السردي، والوصفي، أو شكل الفقرات المرتبطة بالفكرة الرئيسة التي تمثل عصب القصة. أما النهايات ففيها نهايات مغلقة، ونهايات مفتوحة.

❖ اللغــة:

لأن القصص تعبر عن مواقف حارة تمثل بؤرة صراع لدى الشخصيات، لذا جـاءت اللغــة أدبيــة مـتـوترة، ذات إيقــاع ســريع يتـفق مـع الحـالـة النفـسيـة للشخصيـات، وكثيراً مـا تصل هذه اللغة إلى الشـاعرية خصوصاً في حـالات الأحـاديث النفسيـة، والأسلوب بصورة عـامة بسيط دون إسفـاف، واضح دون سذاجة لا غموض فيه. واستخدام اللغة الشاعرية وصياغة الأسلوب في صور فنيـة أنقـذ القـصص من المبـاشـرة التي نحـذر منهـا، ويرجع ذلك إلـى قـدرة الكتاب الفنية.

❖ الضمائر:

تراوح اسـتخدام الضـمـائر بين ضـمـيـر المتكلم الذي يقوم فيـه الكاتب بدور الراوي محاولاً الدخول في أعماق شخصياته، وأحياناً أخرى يستخدم ضمير الغائب، حيث يتاح للكاتب التعليق على الأحداث، ومبيناً سلوك الشخصيات، وتبعـاً لذلك يتحـدد الزمـان الـذي يتـحـدد فـي الحـاضـر، أو المـاضي، أو المزج بينهما من خلال «الفلاش باك».

❖ الشخصيات:

الشـخصيـات إيجابيـة باعتبـارها تمثل الأبطال المناضلين/ الرمـز للمقاومـة والكفاح الذي يقتدى به، وهذه الإيجـابيـة تنبع من تسلحهـا بالوطنيـة الصادقة والمتأججة، والإيمان العقـدي القوي مما يدفعها إلى الاستشهاد في سبيل الله لتفوز بالجنة.

كما نجد في قصص الحرب والانتفاضة البطولة الجماعية، وكل شخصية في هذه الجماعة تعرف دورها المنوط بها.

ورغم ان هذه الشخصيات نضالية تعيش في ميدان المعركة إلا أنها شخصيات عاطفية، تحن إلى حياتها المدنية - في أوقات الراحة - فتتذكر الأسرة، والزوجة، والحبيبة، والأصدقاء، والأماكن الحبيبة لها، فالحنين يشد الإنسان في أي مكان، بستان، أو معركة.

❖ ❖ ❖

هــوامش الجــزء الثــاني

١- من مجموعة «يسألونك عن الخوف: فتحي سلامة - نشرت هذه القصة بمجلة التحرير ١٩٧٣/١٢/٦

٢- من مجموعة «الظرف المغلق» محمود البدوي

٣- المصدر نفسه

٤- المصدر نفسه

٥- مجلة الرافد - الإمارات العربية - الشارقة - أكتوبر ١٩٩٤

٦- المصدر نفسه

٧- المصدر نفسه

٨- المصدر نفسه

٩- المصدر نفسه

١٠- المصدر نفسه

١١- مجلة الآداب - فبراير ١٩٩٦م

١٢- المصدر نفسه

١٣- مجلة اليرموك - العدد ٢٧

١٤- مجلة المنتدى - العدد ٧١ - يونية ١٩٨٩م

١٥- تعريف بالنثر العربي الحديث: د. عبدالكريم الأشتر - مطبعة ابن حيان دمشق ١٩٨٢ - ١٩٨٣م

١٦- الحرب: الفكرة - التجربة - الإبداع: سيد الوكيل - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٩٥م

١٧- الحرب.. فكرة - تجربة - إبداع: السيد نجم

١٨- صحيفة الخليج - الإمارات العربية المتحدة - الشارقة ٢٠٠٠/١٠/١٦م

١٩- المصدر نفسه

٢٠- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٧/١٢م

٢١- المصدر نفسه

٢٢- المصدر نفسه

٢٣- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٦/٢٤م

٢٤- المصدر نفسه

٢٥- المصدر نفسه

٢٦- سورة البقرة - ٧٤

٢٧-المصدر نفسه

٢٨- المصدر نفسه

٢٩- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٤/١٥م

٣٠- المصدر نفسه

٣١- المصدر نفسه

٣٢- المصدر نفسه

٣٣- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٧/١م

٣٤- المصدر نفسه

٣٥- المصدر نفسه

٣٦- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٩٨٨/٢/١٨م

٣٧- المصدر نفسه

٣٨- المصدر نفسه

٣٩- المصدر نفسه

٤٠- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ١٥/١٩٨٩م

٤١- المصدر نفسه

٤٢- المصدر نفسه

٤٣- يشير الكاتب إلى مؤتمر القمة العربي الذي انعقد بعد الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م

٤٤- المصدر نفسه

٤٥- المصدر نفسه

٤٦- مجلة لوتس - العدد ٧٠ - ديسمبر ١٩٨٩م

٤٧- المصدر نفسه

٤٨- المصدر نفسه

٤٩- المصدر نفسه

٥٠- صحيفة البيان - الإمارات العربية المتحدة - دبي - ١٢/١٠/٢٠٠٠م

٥١- المصدر نفسه

٥٢- صحيفة الاتحاد الحيفاوية ٢٢/١٢/١٩٨٨م

٥٣- المصدر نفسه

٥٤- المصدر نفسه

❖ ❖ ❖

للإبداع بأنواعه المختلفة أثر فاعل في إيقاظ الشعور الوطني، والحث على الجهاد وحشد الجماهير حول المناضلين يشدون من عزيمتهم. ولبيان أهمية مواكبة الابداع للفعل النضالي نضرب المثل بحربي ١٩٧٣،٩٦٧، وبالانتفاضة الفلسطينية الأولى والانتفاضة الفلسطينية الثانية التي سجلها لنا الابداع الأدبي وحفظها في ذاكرته لتمثل مرجعية تاريخية واجتماعية ونفسية، معلنة للعالم أن قضية الشعب الفلسطيني ستظل حية، حتى يتحرر الوطن الفلسطيني من الاحتلال الصهيوني الغاشم.

وهذا الكتاب يتضمن مطالعات نقدية في كتابات ابداعية عربية قصصية وشعرية مكرسة للمقاومة الشعبية ضد الاحتلال، تسلط الضوء على الطريقة التي تفاعل بها الابداع العربي مع فعل المقاومة والتضحية. ويغطي الكتاب عدداً كبيراً من النصوص التي كتبت في أوقات مختلفة، لكنها تشترك في أنها انطلقت من فعل المقاومة موضوعاً لها، حاملة الخصائص الفنية لهذا النوع من الكتابة التي تستوحي الحدث وتسعى الى ترميزه وكشف ما ينطوي عليه من دلالات.

